# دعوني أتكلم

للكاتبة "دوميتيلا باريوس دو شنغارا".

## دراسة تحليلية


## تأليف

## زانة العزاوي



**الطبعة الأولى: ٢٠١٨م**

كتاب :"دعوني أتكلم" دراسة تحليلية

الكاتبة: زانة العزاوي

الطبعة الأولى: القاهرة / ٢٠١٨م

تصميم الغلاف: عصام أمين

مراجعة وتدقيق لغوي :د/محمد مجاهد مهدي

المستشار القانوني : أحمد سامي الغرياني – إبتسام رحمة

التنفيذ والإخراج الفني: دار الاحتواء للنشر والتوزيع

المدير التنفيذي :د/نجلاء نبيل

رئيس مجلس الإدارة : الشاعر/ شريف الصاوي

هاتف: ٠١٠٠٠٣٩٣٨٦٥

Dari7twa2@yhoo.com
www.facebook.com/Dari7twa2

رقم الإيداع /١٧١٠١/ ٢٠١٨

الترقيم الدولي / 978-977-6656-83-3

# الإهداء

إلى روح والدي المجللة بالبياض.

إلى والدتي.

إلى نبض القلب ابنتي صفاء .

إلى الذي بعث الروح في أحرفي وأوراقي الهامدة،

ونفض عنها الغبار

*شاعر الرومانسية *

السيد: شريف الصاوي

زانة العزاوي

## توطئة عامة

لماذا كتاب"دعوني أتكلم"؟

ألأن صاحبته امرأة؟ ألكونه ملمحًا متميزًا من الثقافة العُمَّالية بشكل عام؟!

الحقيقة أن ما لفت انتباهي في الكتاب هو كونه وثيقة شفوية، والتاريخ الشفهي عندنا لا يلقى اهتمامًا واسعًا؛ ربما لارتباطه بالبحث الميداني الذي يعوز التجربة الثقافية المغربية التي لا زال أكثر مثقفيها متمسكين بحصانتهم العاجية المتوهَمة.

إن التدوين والتوثيق عامة ليس ترفًا بقدر ما هو ضرورة؛ لأن الرواية الشفوية مع مرور الزمن تغزوها الإضافات، ويقوضها النقصان، بل تميل أحيانًا إلى الأسطورة؛ مما يعرضها لفقدان المصداقية أو للانتحال زيادة أو نقصانًا.

وفي وسط تشكل فيه الأمية السمة العامة، ليست الوثيقة الشفوية تكميلية دائمًا بقدر ما يمكنها أن تكون وثيقة أساسية تحتّم

تدوينها ـ خصوصًا ـ إذا كانت تعبر عن تجربة إنسانية أصيلة يجب الاستفادة من عبرها وتفادي أخطائها.

ونلاحظ أن التجربة العمالية المغربية ـ مثلًا ـ هي تجربة يعوزها التدوين، وشهادات العمال ـ إذا وجدت ـ تكون عابرة ، ولقمة سائغة للتناسي والنسيان؛ لذا تأتي الوثيقة الشفوية كسداد لثغرات لا يغطيها هدير الأحداث الجسام، وهو ما تنبهت له مقدمة الكتاب الذي نحن بصدده؛ إذ تقول: "إن الوثائق المدونة التي تتناول تجارب الناس العاديين والفقراء قليلة"[1].

كما تعتبر "دوميتيلا" ـ صاحبة الكتاب ـ الوثيقة الشفوية وسيلة ليس فقط للاستفادة أو الاعتبار محليًّا، بل هي وسيلة للاستفادة المتبادلة بين الشعوب، تقول: "إنه من المهم أن نأخذ التجارب من تاريخنا، وأيضًا من تجارب الشعوب الأخرى؛ ولهذه

---

١ - "دعونى أتكلم" لـ"دوميتيلا باريوس دو شنغارا".

**الغاية يجب أن تكون هناك شهادة تساعدنا على أن نفكر مليًّا في أعمالنا وننتقدها"[٢].**

**وفي موضوع التوثيق هذا، وبعيدًا نسبيًّا عن موضوع الأدب العمالي، يقول الباحث الفلسطيني "سميح شبيب" متحدثًا عن التجربة الفلسطينية في هذا المجال: "لعلّه من دواعي الأسف، القول بأن مرور السنوات الخمس والعشرين الأخيرة دون القيام بتسجيل شهادات الشهود الأحياء؛ أي دون اعتماد وسائل التوثيق أضاع فرصة تاريخية من أهم الفرص، حيث توفّى في هذه الفترة معظم أبرز قادة الفصائل والمحاور ممن شاركوا في الثورة، وعايشوا مراحلها دون أن يلجأوا لكتابة مذكراتهم الشخصية، وبذلك ضاعت فرصة لا يمكن تعويضها إطلاقا"[٣].**

---

٢ – "دعونى أتكلم" لـ"دوميتيلا باريوس دو شنغارا".

٣– التوثيق الفلسطينى واقعه وإشكالاته، شرف برش، سلسلة دراسات، رقم٢، سميح شبيب، ط ١/ ١٩٩٠.

وليس أدل على أهمية التوثيق وقيمته تاريخيًّا وحضاريًّا ، وعلى مشروعية قلق الباحث "سميح شبيب" من استهداف العدو الصهيوني لمركز الأبحاث الفلسطيني من خلال اعتداءات عنف متفرقة أبرزها نهب كافة محتوياته من قِبل جيش العدوان الإسرائيلي أثناء اجتياحه لبيروت الغربية في شتنبر (سبتمبر) ١٩٨٢م ، كما تم تفجير مقره بسيارة ملغومة في فبراير ١٩٨٣م... وهلم جرا .

إن أهم ما يستوجب التوثيق، التاريخ الشفهي المهدد بالنسيان ، وعنه يقول مثلا "آلن دوجلاس": "التاريخ الشفاهي يتوغل باقتحاماته داخل الحضارة المعاصرة، والحضارات الأميَّة على السواء"(٤).

---

٤- مجلة فصول، ع ١/ ١٩٨٣، ص: ٩٦.

والحقيقة أنه لو عُبِّدت هذه الطريق لاجتمع من الوثائق التاريخية الشفهية ما يعجز دونه العدّ، وما يشفي غليل هذا التعطُّش الجماعي لمعرفة مكامن الداء...، وما يستحضر صورًا جريحة أمام ناظري الجيل الجديد الذي لا يعرف كيف، ولمَ انطفأت إشراقات لا يمكنه تخطي تضحياتها لاستشراف مستقبل مغاير؟...

إن ذاكرة المهمشين الشفوية ـ التي داست عليها أقدام الإلغاء المتعمِّد ـ في حاجة إلى لملمة أشلاء ، وتجميع وتصنيف .. خاصة وأن الوسائل التكنولوجية المتاحة بوفرة غير مسبوقة تسهِّل مأمورية الحفاظ على التاريخ الشفوي ، للاستفادة منه أو تصحيحه أو التعريف به ، ولا يخفى دور الإعلام الحاسم في مجال كهذا ، وفي أيامنا هذه.

## تمهيد حول الكتاب

الحقيقة أن الدارس قد يلاقي في البداية صعوبة بالغة بسبب ما قد يبدو "لا منهجيا" في الكتاب، لكن بعد القراءة الثانية يكتشف في هذه البعثرة نظامًا (أو نُظمًا) آخر، مطلوب من المتفحِّص أن يعيد بناءه حسب نوعية اهتمامه، لكن ذلك لا يمنع وجود إطار عام مسبق للكتاب قُسِّم إلى ثلاثة فصول كما ورد في الكتاب نفسه وذلك كالتالي:

١-" في الفصل الأول تصف "دوميتيلا" شعبها؛ ظروف عمل ومعيشة رجال ونساء المناجم، واندماجهم في الحركة العمالية المنظمة.

٢- في الفصل الثاني تحكي حياتها بارتباطها مع الحوادث التاريخية التي عاشها شعبها.

٣- في الفصل الثالث تعطي نظرة شاملة عن المناجم في عام ١٩٧٦م ، خاصة بعد إضراب عمال المناجم في يونيو ويوليو".

هذا التأطير المسبق لم يحل دون وجود نوع من التداخل في الكتاب، ولعل مرد ذلك هو كون المؤلَّف عبارة عن وثائق شفوية متفرقة أصلًا؛ من استجواب ومراسلات ( قليلة ) وغيره ... وقد آثرت "ميما فيزر"(٥) أن تنقلها بكل أمانة إلى القارئ، وهذا التدارك لوثيقة شفوية بالتدوين هو بادرة جد إيجابية، بل تستوجب كل اهتمام، كما أن "دوميتيلا" نفسها قد رحبت بها وحثت عليها.

لكن المميز في الموضوع وما يستلزم التسطير عليه منذ البداية هو أن "دوميتيلا" لا تعتبر كتابها، أو سرد تجربتها مجرد شهادة ـ فحسب ـ بل هدفها من وراء ذلك هو الدعوة إلى الاستفادة من تجربتها؛ حيث تقول : "أريد أن أوضح أن هذا العرض لتجربتي الشخصية مع شعبي، الذي يقاتل من أجل التحرير – والذي أدين

---

٥- (انظر نهاية الكتاب).

له بوجودي – يجب أن يصل إلى أكثر الناس فقرًا، الذين لا يملكون مالًا، لكنهم بحاجة إلى بعض التوجيه، نموذجا يمكن أن يخدمهم في المستقبل"[٦].

من هنا تكمن أهمية هذه الشهادة (التجربة) وتميزها في آن واحد.

---

٦ – "دعونى أتكلم" لـ"دوميتيلا باريوس دو شنغارا".

## تعريف مجمل بالكتاب وصاحبته:

إن كتاب "دعوني أتكلم" شهادة امرأة من المناجم البوليفية، لصاحبته "دوميتيلا"باريوس دوشنغارا. قامت بنشره "ميما فيزر"

*Mema Vizzer* وترجمته إلى العربية "سميّة فلو"، وأصدرته مؤسسة الأبحاث العربية ضمن سلسلة "ذاكرة الشعوب" تحت رقم ١٨سنة ١٩٨٥م كطبعة ثانية، أما الطبعة العربية الأولى فكانت سنة ١٩٨٠م.

والكتاب عبارة عن مجموعة مقابلات أجرتها "ميما فيزر" مع ""دوميتيلا"باريوس دوشنغارا" في المكسيك وفي بوليفيا، إضافة إلى بعض خطاباتها في محكمة السنة العالمية للمرأة، التي نظمتها الأمم المتحدة والتي عقدت في المكسيك سنة ١٩٧٥م، وأيضًا بعض محاوراتها مع أفراد من شرائح اجتماعية مختلفة: طلبة جامعيين، وعمال.

هو إذن عبارة عن مواد مسجلة إضافة إلى بعض المراسلات المدونة التي رتبتها "ميما فيرز" وراجعتها مع "دوميتيلا"، فكانت النتيجة هذه البادرة الهامة من التاريخ الشفهي.

والفضل الكبير يعود لـ "ميما فيزر"، ولمجهودها الرائع الذي أنهته في ١٠ مارس ١٩٧٨م.

- <u>من هي دوميتيلا؟</u>

و "دويميتيلا باريوس دوشنغارا" امرأة من الأندز البوليفية، زوجة عامل منجم وأم لسبعة أطفال، ناضلت في صفوف "لجنة ربات البيوت في "سيغلو ٢٠" ؛ وهي منظمة لزوجات العمال، ساندت النضالات العمالية حتى في أحلك المحن، وقد استحقت هذه المرأة – كما تقول مقدمة الكتاب – لسنوات نضالها الطويلة والعسيرة، أن توجه إليها الأمم المتحدة دعوة رسمية للمشاركة في محكمة السنة العالمية للمرأة الذي نظمته الأمم المتحدة في المكسيك سنة ١٩٧٥م.

### ١. بوليفيا ورقة تعريف من خلال الكتاب:

#### أ- الهوية الطبقية:

تبدأ "دوميتيلا" بإعطاء نبذة عن وطنها، فبوليفيا تقع في المخروط الجنوبي من قلب أمريكا الجنوبية يسكنها فقط حوالي خمسة ملايين نسمة، وهي تزخر بثروات كثيرة ومتنوعة من معادن؛ كالقصدير، والفضة، والذهب، والزنك، والحديد، ومن محروقات؛ كالنفط، والغاز، ومن مواشي وغابات ومنتجات زراعية متنوعة.

ولا تتجرَّد "دوميتيلا" أثناء وصف ثروات بلدها من نظرتها الطبقية للأمور، فمن عاش ـ وبزخم حسه الإنساني الأصيل ـ في مدينة عمالية، لا يمكنه إلا أن يرى الأمور بشكل أوضح؛ لذا فالثروات التي تجردها "دوميتيلا" في اعتزاز بوطنها، لا يفوتها أن توضح أنها لم تكن ملكًا للشعب البوليفي، إذن بوليفيا بلد غني، يعج بأغلبية فقيرة .

## ب- الهوية الثقافية:

هذه الهوية الطبقية لا تغطي الهوية الثقافية للطبقة العمالية البوليفية آنذاك، والتي يمكن تحديد بعض سماتها ، من منطلق لغوي ، فالبوليفيون يتكلمون اللغة الأسبانية ـ ككثير من شعوب أمريكا الجنوبية ـ لكن "دوميتيلا" لا تتناسى لغات شعبها الأصيلة المهمشة ـ إن لم نقل المهملة ـ فتذكر منها على وجه الخصوص: "الكيوشوا"، "الإيمارا"، وهما اللغتان اللتان لا زالت نسبة كبيرة من العمال والفلاحين تتكلمهما، كما قد نجدهما كذلك في بعض المدن مثل "لاباز".

أيضًا تعتز "دوميتيلا" بأصلها الهندي كثيرًا... لكن هذا التنوع الثقافي عامة، لا تذكره "دوميتيلا"كاختلاف عميق وحاد؛ لأنها لا تفصل بين الوضع الثقافي والطبقي للبوليفيين، فثقافة بوليفيا بطبعها التنوع الذي يجب أن يصب – بالنسبة للطبقة الشغيلة والمرتبطين بها – في مجراه الطبيعي في خدمة الطبقة الكادحة التي تعطي أنفس ما تملك، ولا تأخذ أدنى ما تستحق.

## ٢. الأوضاع العمالية في بوليفيا من خلال "دعوني أتكلم":

في البلدان التابعة للرأسمالية المتوحشة، تتشابه الأوضاع العمالية أحيانًا لدرجة التماهي، وأحيانًا تتدخل خصوصيات كل بلد على حدة؛ لتميز هذا الوضع آنذاك، لكن تبقى الملامح العامة لأوضاع العمال متمثلة في الاستغلال الفاحش، والشعور بالتهديد الدائم بسبب وجود جيش دائم من العاطلين يعرقل سيرورة النضالات العمالية مما يحتم ساعتها التفكير في عمل جماعي ومنظم.

تفرض هذا أيضا طبيعة الظروف الاجتماعية المتردية سواء على مستوى المعيشة اليومية المملقة، أو السكن غير اللائق أو الصراع اليومي ضد قوى الاستغلال والقمع الذي يتحول أحيانا ـ ولأتفه الأسباب ـ إلى قمع دموي شرس.

إن تميز الطبقة العاملة ببنيتها وخصوصيتها الاجتماعية والتاريخية وتقاليدها النضالية من جهة، وطبيعة النظام الاقتصادي والسياسي الذي يشكل حلبة الصراع من جهة أخرى يجعل من الأوضاع العمالية في "بوليفيا" رغم بعض التمايزات اللصيقة

بالظروف الجغرافية وبالإرث النضالي المتميز هناك، يجعل منها صورة للوضع العمالي في مناطق أخرى من العالم.

وسيتضح ذلك أكثر من خلال تصوير "دوميتيلا" للوضعين الاقتصادي – الاجتماعي، والثقافي في "بوليفيا"، ولقد تعمَّدت الفصل منهجيًّا بين الوضعين ليس لانفصالهما القطعي، وإنما لإظهار تنوع الكتاب وقدرته ـ وإن كان في غير تنظيم محكم ـ على التقاط صورة إجمالية للواقع العمالي البوليفي في شموليته وتنوعه، ولنترك ـ إذن ـ التجربة تتكلم، والتجربة هي أهم كتاب في الحياة إذ تعطي الدرس بعد تصحيح الخطأ لا قبله.

### أ- الوضع الاقتصادي - الاجتماعي.

### ١- التفاوت الفظيع في الثروة:

ولعل أهم ما أجّج حماس "دوميتيلا"للانخراط في هذه التجربة التوثيقية ، هو التفاوت الفظيع في الثروة بـ"بوليفيا" ، فالوضع الاقتصادي - الاجتماعي ، حين يتجرد من الحق في العدالة الاجتماعية ، وفي الاستفادة الجماعية من الثروات الوطنية ، ينتهي إلى طرح السؤال المنطقي المتداول في مثل هذه الأوضاع: لماذا ؟.

و يتدرج حديث "دوميتيلا"عن البؤس من التخصيص إلى التعميم؛ فنجدها تتناول عن وضعية المزارعين الذين يعيشون في فقر وبؤس لا يوصفان... فخصوبة التربة لم تحمِ السبعين في المائة (٧٠%) من المزارعين من العيش في فقر مدْقع. تقول عنهم: "حالهم أسوأ من حالنا نحن عمال المناجم"[٧].

---

٧ - "دعوني أتكلم" لـ"دوميتيلا باريوس دو شنغارا".

ثم تتحدث عن العمال الذين لا يملكون شيئًا قد يدفع بهم إلى الاستقرار فتصفهم بالغجر "نعيش كالغجر على أرضنا"[٨]، ثم تتعمم نظرتها وتتوسع لتشمل كل فقراء بلدها. تقول: "إذا كان صحيحًا أن "بوليفيا" بلد غني إلى هذه الدرجة بالمواد الخام، لماذا يكثر فيها الفقراء؟ ولماذا ينخفض مستوى المعيشة فيها مقارنة مع بلدان أخرى، حتى في أمريكا اللاتينية؟"[٩].

إلا أن "دوميتيلا" لا تلبث أن تخرج من إطار التعميم لتركز على طبقتها العمالية؛ فشخصية "دوميتيلا" نفسها هي إفراز عمالي: زوجها عامل، أصدقاؤها، رفاقها...؛ لذا بقي وعيها أسير طبقتها، وفيًّا لمبادئها وتقاليدها النضالية...

ولا تكتفي "دوميتيلا" بوصف وضعية الفقر بقدر ما تحاول تحليل أسبابه بلغتها البسيطة التي تستلهم الاستخدام اليومي فقط (مستوى "دوميتيلا" الثقافي لا يسمح لها بتحليل تاريخي

---

٨ – المرجع السابق

٩ – المرجع السابق.

معمق،لكن تحليلها العفوي الصادق الخالي من كل مساحيق لا يخلو من تاريخية...)، فقرب أمريكا اللاتينية – قاريًّا ـ من مركز الاستنزاف: "الولايات المتحدة" يسهِّل مهام الشركات ذات الجنسيات المتعددة؛ مما يجعلها محط اتهام مباشر من لدن "دوميتيلا"؛ لذا فهي تُرجع أسباب التفاوت الفظيع في الثروة لتسرب النقد خارج "بوليفيا"، وترى أن الشركات متعددة الجنسيات تسيطر على "بوليفيا" وتدير اقتصادها، تقول مثلًا: "كثير من الناس أصبحوا أغنياء لكنهم يوظفون كل أموالهم في الخارج، وتسلم ثروتنا إلى نهم الرأسماليين بأدنى أسعار ممكنة من خلال اتفاقات لا نستفيد منها"(١٠).

ثم تعود لتلفت الانتباه إلى المفارقة بين غنى "بوليفيا" وقلة سكانها من جهة وفقر الشعب البوليفي لدرجة أن أحدهم عبَّر عن الوضع بما يلي: "بوليفيا غنية جدًّا لكن سكانها شحاذون"(١١).

---

١٠ – "دعونى أتكلم" لـ"دوميتيلا باريوس دو شنغارا".

١١ – المرجع السابق.

بيْد أن "دوميتيلا"لا تبرئ كل البوليفيين، تقول: "الكثير من البوليفيين يستفيدون من هذا الوضع، ويبيعون أنفسهم بدولارات قليلة، ويتعاونون سياسيًّا مع الغرنغوس"[١٢]، كما لا يفوتها التنبيه إلى أن ازدياد كل هؤلاء لا يكون إلأ لأن "البرجوازية" هي أقوى من كل شعور وطني أو تعصبي أيًّا كان.

بل نجدها لا تتردد في وصفهم بالتلذذ بعذابات الآخرين (انظر ص ١٩)، وبهذا الصدد تبرز ظاهرة استغلال الأطفال، بل تحتل مكانة متميزة رغم أن "دوميتيلا"مرت عليها مرور الكرام إلى حد ما.

### ٢- الوضعية الصحية والسكنية:

لقد ركَّزت "دوميتيلا" على وضعية عمال المناجم الذين يشكلون أكبر ركيزة اقتصادية في الوطن، ولا يملكون في النهاية مأوى قارًا، وتظهر كيف أن قوانين الشركة التي تنص على وجوب تأمين مسكن للعمال، لم تكن سوى حبر على ورق، لم ترَ نور

---

١٢ – المرجع االسابق.

التطبيق أبدًا؛ فالشركة هي التي تملك المساكن، وأصلًا هي مساكن فظيعة، لا تُعطى للعمال وإنما تُعار لهم فقط.

وتضيف "معظم العمال يعملون لخمس أو عشر سنوات دون أن يحصلوا على بيت"[١٣]، بل حتى هذه الوضعية السكنية الفظيعة نوعيًّا،فهي لا تغطي كل الاحتياجات ؛ إذ لم تكن كافية عدديًّا ؛ لذا يضطر الكثير من العمال إلى السكن في قرى مجاورة للمدينة العمالية كقرية "لالاغوا" قرب "سيغلو ٢٠".

ولايفوت صاحبة الكتاب أن تتوقف عند الوضع الصحي للعمال؛ فالمعدل المتوقع لحياة عمال المنجم في "بوليفيا" هو بالكاد ٣٥ سنة، إذاك يكون مصابًا تمامًا بمرض المنجم، وهو داء رئوي جاء في الكتاب باسم "التسمم السيليكي"، وترجع أسبابه إلى كثرة الانفجارات المتعمدة لاستخراج المعدن الخام (القصدير)، والتي تثير غبارًا كثيفًا ودقيقًا تستنشقه الرئتان، فيعلق بهما إلى أن يأتي عليهما، وتصف "دوميتيلا"حالة العمال المصابين، المزرية

---

١٣ – المرجع السابق.

حيث تصبح أفواههم سوداء وأرجوانية، ويتقيأون أخيرًا قطعا من الرئة ثم يموتون.

ولا يخفى ـ من خلال الكتاب ـ أن ما يزيد الطين بلة: نوعية المناجم في بوليفيا؛ فهي عرضة لاستغلال غير منظم مما يؤدي بها إلى الاستنزاف السريع الذي يتطلب مجهودات مضاعفة ومنافسة حادة، وتتدخل التضاريس الجغرافية للمنطقة المنجمية لتجعل الأمر في غاية الصعوبة وهو ما حتَّم استعمال المتفجرات باستمرار.

وأمام الأمر الواقع الشرس الذي لا يدفع إلا للمغامرة، وإذ يعلم العامل مآله الصحي ومصيره المهدد بالموت في أية لحظة، يصبح الحديث عن الموت حديثًا عن الخبز،هذا الشعور بالضياع والعجز والمصير المجهول، يدفع الكثير من العمال الشباب إلى محاولة الهروب من التفكير في هذه الأمور باختزال أوقات فراغهم في التدخين، وهو ما كان يزيد الوضع الصحي تعقيدًا حسب رأي "دوميتيلا"، بل يؤثر هذا الوضع "الصحي" للعمال حتى على علاقاتهم بالآخرين، تقول في هذا المضمار:"إن الناس يرتعبون منا

ويظنون أننا سننقل إليهم مرضنا مع أن هذا غير صحيح، لكن هذه المعتقدات سائدة في الريف، وفي المدينة؛ ولهذا يرفض الكثيرون أن يؤجرونا بيوتا، يظنون أن مرض المنجم الذي يصاب به رفاقنا سوف يخترق الجدران ويعدي الجيران.

وبما أن العمال يمضغون الكوكا لتساعدهم على عملهم اليومي، فإنهم يقولون أن العمال مدمنون مخدرات، ومجانين المناجم، وهكذا ترى أن مشكلتنا جدية"[١٤].

### ٣ـ قوى القمع المعادية للعمال:

لا يفوت المؤلفة أن تسلط الضوء على الجهة المقابلة؛ أي على مختلف قوى القمع المعادية للعمال ومختلف وسطائها وعملائها ؛ إذ تعددت مجالات نشاطها من خلال المؤلف، وقد تراوحت عمومًا بين الإعلام المزوَّر، والقمع الشرس، والأقنعة الدينية، والنقابات الصفراء:

---

١٤ – المرجع السابق.

- فمن مظاهر الدور التخريبي للإعلام، ما ذكرته المؤلفة فيما سلف من إشاعات حول العمال، فليست إشاعة المرض الخطير المعدي، وإدمان المخدرات، سوى محاولة لعزل العمال، والحيلولة دون تضامن بقية الشرائح معهم؛ لأن القوى الرجعية وعت ـ من خلال تجربة صراعها مع الطبقة العاملة، ومع الجماهير الشعبية بصفة عامة ـ وعت خطورة التلاحم الطبقي، والالتحام الجماهيري بنضالات الطبقة العاملة؛ لذا فهي تسخر كل وسائلها الدعائية لفك هذا الارتباط، ولخلق تناحرات داخلية حتى بين العمال أنفسهم، ونفس الوسائل الدعائية هذه تروج رسميًّا من زاوية أخرى أن حياة العمال سهلة، وأنهم مجرد هواة شغب تعودوا على الإضرابات ، تقول "دوميتيلا"عن هذه الدعاية الرسمية: "حين يتكلمون عن عمال المناجم يقولون: إننا نملك حتى مساكن مجانية ومياه شرب وكهرباء مجانية وتعليمًا مجانيًّا، لكن ليأتِ من يريد إلى "سيغلو ٢٠" وسوف يرى الحقيقة بنفسه"(١٥).

---

١٥ - المرجع السابق.

- أما القمع الشرس والمجازر الدموية فيزخر بهما التاريخ العمالي البوليفي، خاصة في "سيغلو ٢٠"، وسيغلو ٢٠ هو أكبر مركز لاستخراج المعادن في "بوليفيا"، ولعل هذا ما أغنى تجاربه الثورية المعروفة في التاريخ حتى أصبح قلعة عمالية آنذاك ، كل هذا جعله عرضة لمذابح وحشية من قبل الحكومات المتعاقبة في"بوليفيا".

وقد ارتسمت في ذاكرة "دوميتيلا"مجازر عديدة أبت إلا أن تحفرها على ذاكرة التاريخ العمالي: مجزرة ١٩٤٢م، ١٩٤٩م، ١٩٦٥م، ومجزرة "سان جوان" في ١٩٦٧م.

وقد ارتسمت الأسماء أيضا في ذاكرة "دوميتيلا"إذ تقول: "الكل يعرف مثلا قصة "سان رومان" و"ميناشو"، وهما قائدان في الأمن السياسي للحكومة "الوطنية الثورية"، كان عند "سان رومان" مكان كالسجن في بيته؛ حيث كان يعذب الناس

بوحشية وكان "سان رومان" رعب كل المساجين السياسيين"[١٦].

- وتتفنن أيادي القمع في إيجاد منافذ متنوعة تسهل له عملية السيطرة على الأوضاع، ولم يكن "سان رومان" سوى إحدى أدواته؛ إذ إن هناك ـ مثلًا ـ وسيلة أخرى وهي استغلال الدين كإيديولوجية قمعية، وقد استغل الدين مرارًا لقمع العمال في "بوليفيا".

ولا يسع هنا سوى سرد تجربة "دوميتيلا"نفسها مع بعض الفرق الدينية في "بوليفيا"، وهي تجربة غنية عن أي تعليق، كما أنها لا تنفصل عن تجارب بقية أفراد المجتمع العمالي، ومن الفرق التي تذكرها: مجموعة "شهود يهوه"، و"الكاتوليك".

كانت أول تجربة لها بهذا الخصوص، بعد عودتها إلى" سيغلو ٢٠"، مع مجموعة "شهود يهوه"و لعل "دوميتيلا"ارتمت بين أذرع هذه المجموعة الطائفية الدينية تأثرًا بموقف والدها الموالي

---

١٦ – المرجع السابق.

لهذه المجموعة، لقد داومت على لقاءاتهم وأمضت حوالي خمس سنوات في قراءة الإنجيل، لكن بعد انضمامها إلى لجنة "ربات البيوت" اصطدمت "دوميتيلا"بحقيقة هذه المجموعة الدينية التي لم تكن في الواقع سوى غشاوة سميكة، ومن أراد المرور إلى الجانب الآخر، جانب "لجنة ربات البيوت"، إنما عليه تمزيقها.

ولنستمع إلى "دوميتيلا"تحكي عن هذه التجربة: "انضممت إلى اللجنة (تقصد لجنة ربات البيوت)؛ لأنه كان من الضروري أن أكون مع النساء اللواتي كن مع رفاقهن يناضلن من أجل ظروف معيشية أفضل، ثم أخبرني "شهود يهوه" أنني يجب ألا أتورط في ذلك، وأن الشيطان هناك، وأن الدين لا يسمح بالاختلاط بأمور سياسية بحتة".

لكن حين رفضت "دوميتيلا"الانسحاب من لجنة "ربات البيوت" ، اتصلت بها هذه الفرقة الدينية لتخبرها بأن أعضاءها سيعاقبونها، وذلك بعزلها لمدة سنة كاملة، لن يكلمها خلالها أي أحد منهم، حتى تفكر في خطاياها، وإذا تمادت في عنادها ستطرد

من دينهم، وبذلك تنكشف حقيقة الوصاية القسرية التي تمارسها هذه المجموعة الدينية على أعضائها.

وتزداد "دوميتيلا"إدراكًا لحقيقة المجموعة من خلال منظور هذه الأخيرة للأرملة المملقة التي لا يرحمها الواقع فتضطر إلى إعالة أبنائها بشتى الوسائل ـ دون أن تجد لها حلا، أو تقدم لها العون لترحمها مما ارتمت فيه اضطرارًا ، تقول في هذا المقام : "بحسب تفكيرهم لن ترى الأرملة وجه الله في الحياة، ولا يخفى عدد الأرامل في الوسط العمالي في "بوليفيا"؛ بسبب المعدل العمري لعمال المناجم هناك، والذي يتسبب فيه "التسمم السيليكيي" أو مرض المنجم .

وتخاطب "دوميتيلا"هذه الطائفة الدينية بقولها : "ومع أنكم تعتقدون أن العون الروحي هو الشيء الوحيد المهم، أعتقد أنكم يجب أن تبدأوا بالعون المادي"، ويتعمق إدراك "دوميتيلا"لحقيقة هذه المجموعة تدريجيًّا إلى أن تتوصل إلى قناعة أوصلتها إليها التجربة اليومية والاحتكاك الملموس والمعاناة الحقيقية؛ فتقول:

"فيما بعد بدأت أفهم كيف أنهم لم يكونوا سوى مجموعة أخرى مرتهنة للإمبريالية، يطلبون منا ألا نتورط في السياسة ومع ذلك فإنهم كانوا في المعبد يتحدثون كل الوقت في السياسة، وبالأسلوب نفسه يعالجون كل الأمور".

كانت ـ إذن ـ مجموعة "شهود يهوه" في نظر المؤلفة أداة قمعية هدفها محاربة كل أشكال الفكر الذي يخدم مصلحة الكادحين، وبالتالي كانت مجموعة تأخذ نصيبها من الغنيمة: عرق العمال، كانت مجموعة ملطخة الأيادي، مهما تسترت بلباسها الديني بدماء عمال أبرياء.

إضافة إلى المجموعة السابقة ـ تذكر "دوميتيلا" وجود مذاهب أخرى في "سيغلو ٢٠" خاصة المذاهب الكاثوليكية، تقول عنهم: "لكنني لم أتورط من المنتمين إلى تلك الفئة أيضًا؛ لأنه في تلك الأيام كان المسيحيون ـ وبشكل خاص رجال الدين والراهبات ـ ضدنا حقًّا، كان البابا "بايوس الثاني عشر" قد أوكل

إليهم فصعَّبوا الحياة علينا، لم يفهمونا ، وكانوا غالبا ما يقفون إلى جانب مضطهدينا.

وتضيف الكاتبة أن الدين وضع نفسه في خدمة الأقوياء "مستمعًا إلى وجهات نظرهم، فهم يجعلون الدين في خدمة الرأسماليين فقط، ثم توضح كيف أن رجال الدين المسيحيين كان كل همهم امتلاك المال الوفير، وتحسين أحوالهم المادية، أما الفئة القليلة منهم التي كانت تعي ما يحصل فكانت تكتفي بالصمت حفاظًا على سلامتها الشخصية".

وتختم تحليلها بقولها: "لذلك فإن عمال المناجم ـ بالكاد ـ يعتمدون على الكنيسة"، و بذلك فالوضعية اللا إنسانية التي يعيشها العمال الذين يعطون أثمن ما فيهم: حياتهم، تجعلهم يدركون بعمق أن حل مشاكلهم لا يمكن أن يتبلور إلا من خلال تفحصهم واقعهم لا غيره.

– في نفس الخندق، تقف النقابات الصفراء، التي كان كل همها تشتيت العمال، وتبديد قوتهم التي مصدرها التحامهم واتحادهم،

وتعطي "دوميتيلا"نموذجًا: "منظمة العمل الإقليمية الأمريكية"، وتكشف كل الذين يندسون وراء مثل هذه الألاعيب:

"أولا: قمعونا بشراسة ، حتى أنهم ذبحونا في بعض المناسبات، ثم أرسلوا أشخاصًا من منظمة العمل الإقليمية الأمريكية لإلقاء المحاضرات في المناجم. إنها منظمة دولية تُديرها "الولايات المتحدة الأمريكية"، وقد أنشأت بضعة نقابات مستقلة أو بالأحرى مؤسسات فرعية".

وتكشف المؤلفة كيف أن هذه النقابات، أو المؤسسات الفرعية ـ كما تسميها ـ كانت تدافع عن الشركة وأرباب العمل، بدلًا من أن تدافع عن العمال، وبذلك كانت مهمتها تكميلية.

– إلى جانب الدور الهدام للنقابات الصفراء، هناك الطعنات من الخلف التي وجهتها البورجوازية الوطنية (الحكومة الوطنية الثورية كما سمت نفسها)، للعمال وغيرهم من الكادحين، ممن

وصلت على كواهلهم لمراكزها السلطوية، كخدعة التأمين مثلًا، وهناك أيضًا خيبة الأمل في البورجوازية الصغرى ممثلة في مثقفيها.

كلها وجوه لعملة واحدة، مهما تنوعت الأقنعة، وهي أيضًا تستحضر كلها التجربة العمالية في بقية أنحاء المعمورة.

## - المرأة في الوسط العمالي:

المرأة في الوسط العمالي البوليفي ، خاصة في مدينة "سيغلو٢٠" حيث: تراوحت مواقف المرأة في الوسط العمالي البوليفي ، بين التضحيات الجسيمة والعمالة المجانية.

فمهام المرأة المناضلة تأرجحت بين العبء المنزلي المدفون، والواجب النضالي المصفق له، وتتجلى صعوبة ما ندعوه بالعمل المنزلي من خلال نموذج "دوميتيلا"التي تقوم يوميًّا على الرابعة صباحًا، وتتفرغ لشؤون البيت والأبناء (طبخ، غسيل، تصحيح واجبات الأبناء، جلب الماء...)، ثم لبيع السالتيناس (الذي هيأته ليلًا) في الشارع، تقول: "أنام أربع أو خمس ساعات (في اليوم)، تعودنا على ذلك"[١٧].

لكنها تتأسف لكون كل ما تقوم به المرأة فإن الفكرة التي ما تزال سائدة هي أن النساء لا يعملن لأنهن لا يساهمن اقتصاديا في

---

١٧ – المرجع السابق.

البيت، وأن الزوج هو الذي يعمل لأنه يحصل على أجر، لقد واجهتنا هذه الصعوبة غالبا"[18].

وللوقوف على مدى صحة هذه الفكرة، وضعت "دوميتيلا"جدولًا للأعباء المنزلية اليومية وما يقابلها من أجر متعارف عليه فتوصلت إلى أن ما تقوم به زوجات عمال المناجم كل يوم ، يستحق أجورًا متشعبة، وذلك بالمقارنة مع أجور الطباخ والمرأة التي تغسل والحاضنة والخادمة ... ، فتبين أن الأجر الذي ينبغي أن يُدفع لهن هو أكثر بكثير مما يتقاضاه الرجال من المنجم كل شهر.

تضيف "دوميتيلا": "وبهذه الطريقة أفهمنا رفاقنا أننا نعمل حقًّا، وحتى أكثر منهم من زاوية معينة، وأننا نساهم أكثر بالنسبة للعائلة بما نوفره، مع أن الدولة لا تعترف بما نقوم به في البيت فإن البلاد تفيد منه لأننا لا نتقاضى شيئًا مقابل هذا العمل".

---

١٨ - المرجع السابق.

إذن من داخل هذا الاستغلال المسكوت عنه من طرف الجميع، من عمل ربة البيت اليومي الشاق الروتيني والمحبط خاصة، تكتشف "دوميتيلا" أن العامل ليس وحده المستغَل، بل المستغَل (ومن لدن العامل نفسه) وبدون أجر هو المرأة والأبناء أيضًا (خاصة منهم الإناث)، لكن رغم ذلك هذا لم يمنعها من المشاركة ضمن النضالات النسائية إلى جانب العمال. تقول: "لقد تربينا منذ الطفولة على أننا وُجدنا للطبخ والعناية بالأولاد فقط، وأننا نعجز عن تولي أعمال مهمة، وأنه يجب ألا يسمح لنا بالتدخل في السياسة، لكن الضرورة جعلتنا نغير حياتنا"[19].

لقد كوَّنت النساء لجنة كان هدفها مساندة "رفاقهن" العمال، تكونت في البداية من سبعين امرأة يطالبن بإطلاق سراح رفاقهن الذين اعتقلوا لمطالبتهم برفع الأجور، وكانت وسيلتهن النضالية هي الإضراب عن الطعام لمدة عشرة أيام، فحققت هدفها الأول ذاك، مما شجعها على تكوين لجنة "ربات البيوت في سيغلو ٢٠"

---

١٩ – المرجع السابق.

سنة ١٩٦١م، وهذا التنظيم هو الذي ضمن الاستمرارية لتكتل نساء المناجم ليتحول إلى تنظيم هادف .

ومشهود لهذه اللجنة أنها نشطت في أحلك الفترات التي مرت بها الحركة العمالية في "بوليفيا"، وتبنت مختلف الأشكال النضالية؛ من إضراب عن الطعام، إلى تنظيم مسيرات...، وقد عانت نساء اللجنة من نفس ما عانى منه أعضاء النقابات وبقية التنظيمات العمالية؛ حيث اعتقل الكثيرات، وفقدت أخريات أطفالهن، واستشهدت الكثيرات؛ فخلال الإضراب الثاني عن الطعام في ١٩٦٣م، استشهدت "مانويلا دوسجاس" تاركة ثمانية أطفال يتامى، تقول عنها" دوميتيلا": "كانت أمعاء الرفيقة "مانويلا دوسجاس" قد أصيبت بنشفان شديد"[٢٠]، كما أُجهضت الكثيرات.

وتبرز "دوميتيلا"أنواع المشاق التي كانت تتحملها نساء "سيغلو٢٠" : "فالعمل الذي قمن به كان مرهقًا جدًّا: الحراسة

٢٠ – المرجع السابق.

ليلًا مع الرفاق، والاستمرار في الإضراب، ورعاية ممتلكات النقابة كمركز قيادة النقابة، ومحطة الإذاعة والمكتبة وغيرها..." [٢١].

ولا تفصل "دوميتيلا"نضالات المرأة العاملة البوليفية في الحاضر عن نضالات المرأة البوليفية في الماضي فتذكر "بارتولينا سيسا" مثلًا في ثورة الهنود (١٧٨١-١٧٨٣م)، و"جوانا ازورداي دوباديلا" وبطلات "لاكورنيللا" في حرب "الاستقلال" (١٨٢٥م)، والشاعرتين الكبيرتين "ماريا جوزفا موجيا" و"أديلا زاموديو".

ثم ترتد "دوميتيلا"إلى واقع النساء "العاريات" من منظور المجتمع، وتقول: "في بيوتنا عندنا تجاربنا الخاصة، لقد عرفت مثلًا، نساء عديدات لم يتعلمن حتى أن يتكلمن قليلًا، مثلي، ولكنهن بطلات لا تُذكر أسماؤهن، دافعن بشجاعة عن الناس وقدمن حياتهن من أجلهم"[٢٢].

---

٢١ – المرجع السابق.

٢٢ – المرجع السابق.

إن نساء "سيغلو ٢٠" لم ينهجن كلهن نفس الدرب ، في مواجهة الظلم، بل اصطفت بعض النساء إلى الجانب الآخر ـ المعادي لحقوق العمال ـ نساء ورجالا، وكأمثلة نذكر نساء "البارازول" اللواتي شكلن صفحة ملوثة من تاريخ النساء في "بوليفيا" كانت تنظمهن "الحركة الوطنية الثورية"، الحزب الذي خان ثورة الشعب سنة ١٩٥٢م، وقد نظمتهن تحت اسم "ماريا بارزولا" وماريا هذه امرأة من قرية "لالاغوا" التي تقع قرب "سيغلو ٢٠"، قادت عام ١٩٤٢م مظاهرة كبيرة تطالب بالزيادة في الأجور، وحين وصلت المظاهرة إلى مكان الإدارة المنجمية ب "كاتافي"، ذبح الجيش عددًا من المتظاهرات وكانت ماريا من بينهن، وسُمي ذلك المكان بسهل "ماريا بارزولا"، لكن نساء "البارزولا" هذه المرة كنّ أداة حزبية قمعية في يد "الحركة الوطنية الثورية" وهو الحزب الذي وصل إلى الحكومة حينئذ على كواهل العمال، كما كن يذهبن إلى أبعد حدود الاستفزاز، تقول عنهن: "هناك استياء عام في بوليفيا من نساء البارزولا، يواجهن

العمال بالسكاكين والسياط، يهاجمن المتظاهرين...، وفي البرلمان يرمين من يتكلم ضد الحركة الوطنية الثورية بالبندورة المتعفنة وأشياء أخرى كي يسكتنه..."[٢٣].

وتعلق "دوميتيلا" أنه من العار استخدام أحد رموز التاريخ البوليفي بهذه الطريقة الدنيئة.

- النساء المسيحيات: لقد عانت لجنة ربات البيوت من صدامات عديدة مع تنظيمات نسائية أخرى كالصدام الدائم مع النساء المسيحيات، وخاصة نساء "حركة العائلة المسيحية" تقول عنهن: "كن يبغضننا، ويسميننا بالمهرطقات، بذلن كل الجهود كي يزعزعن الثقة باللجنة".

- نساء قنوعات في ذلة: يشكلن العدد الأكبر، وموقفهن اللامبالي تجرمه "دوميتيلا"رغم اعترافها في حسرة بضرورة قطع شوط طويل حتى تصل النساء إلى مستوى المشاركة الضرورية. تقول: "بعض النساء لا يفهمن حتى لماذا يتوجب عليهن

---

٢٣ – المرجع السابق.

المشاركة، أغضب كثيرًا حين تقول بعض الرفيقات: لماذا نتذمر إلى هذه الدرجة ونتورط في مظاهرات وإضرابات، في النهاية نحن بخير الآن، كنا أسوأ في الماضي، إن التفوه بهذا الكلام كارتكاب الجريمة بالنسبة إلي"[٢٤].

هذه الشهادات الشفوية ، العفوية رسمت ملامح الوسط النسائي ، داخل مجتمع عمالي معزول أو يكاد ،إن الشهادة الشفوية كمصدر تاريخي ، تفرض نفسها أحيانًا، بل تصبح ضرورة منهجية ، حين تقصر الوثيقة ـ تعمُّدًا أو إهمالًا ـ في نقل تفاصيل الحادثة التاريخية.

---

٢٤ – المرجع السابق.

### ٥ـ ظروف العمل:

وأول ما يلفت الانتباه في شهادة "دوميتيلا" أنه وبالرغم من أهمية المناجم في "بوليفيا" والتي تمثل المعادن ٦٠% من مدخولها، ورغم مجهودات العمال المنجميين هاته في الاقتصاد البوليفي، ورغم أنهم يشكلون حوالي ٧٠ ألف عامل منجم في "بوليفيا" إلا أنهم يعانون من ظروف عمل قاسية جدًّا.

ورد في بداية الكتاب بأن هناك حوالي ٣٥ ألف عامل في مناجم الدولة و٣٥ ألف عامل في المناجم الخاصة، وتتجلى قسوة ظروفهم في كون العمال مطالبين بالتوغل في باطن الأرض، واستخراج المعدن لثمان ساعات وبالتناوب حتى لا يتوقف الإنتاج، وتصف "دوميتيلا"هذه الأعماق بأنها مكان غير صحي يفتقر للهواء الكافي، وفيه الكثير من الغاز والرائحة الكريهة التي تُسببها المياه الراكدة الناتجة عن غسل المعادن...، ومما يزيد الأمر خطورة هو اضطرار العمال إلى استعمال الألغام نظرًا للاستنزاف المكثَّف لمحتويات بعض المناجم، وكثيرًا ما تتطاير مع الديناميت أشلاء

بعض العمال...، وأكثر العمال عرضة للهلاك هم العمال المسمُّون بـ "العرقيين" الذين يستخرجون المعدن بجهودهم الخاصة ويبيعونه للشركة؛ إذ لا يحميهم أي قانون، ولا يوجد لديهم ولو أبسط وسائل الوقاية، ولا أي شكل من أشكال التهوية ـ مهما كان ضئيلاـ ويوجد من بينهم العديد من العمال الذين سرَّحتهم الشركة لإصابتهم بالتسمم السليكي، مما يدل على إملاقهم الدائم سواء في بداية عملهم بالشركة أو عند نهايته. وتفسر "دوميتيلا"هذه الوضعية الاستغلالية الصارخة بأنها وسيلة متعمدة للاحتفاظ بالعمال وعائلاتهم في حالة بئيسة دائمة تجعلهم تحت الرحمة الدائمة لأرباب العمل.

**٦ـ واجب المثقف:**

و في ظل العزلة المفروضة على المجتمع العمالي تتولد الحاجة إلى أشخاص يمتلكون القدرة على اختراق تلك العزلة ، وإعادة الاعتبار "لغيطو" المدينة العمالية ومد الجسور بينه وبين محيطه.

وهنا لا يخفى دور الشباب الواعي المستبصر في استثمار صدى ذبذبات حياة الجماهير وتحويلهاإلى فعل، ولكن إذا كان يؤم "سيغلو ٢٠" جامعيون متخصصون وغير متخصصين، يقيمون حلقات تدريسية وتعبوية للعمال، فقد كان هناك في المقابل من أبناء العمال من تقول عنهم "دوميتيلا": "لا يعرفون كيف يتكلمون لغتنا، أعني أنهم يحللون كل شيء ويشرحونه بأسلوب معقد لدرجة أننا لا نعود نفهم بعضنا على الإطلاق، وتلك غلطة كبيرة؛ لأن أولئك الذين يلتحقون بالجامعة يتعلمون أشياء كثيرة، ويجب أن نستفيد منها كلنا، أليس كذلك؟! أعتقد أنهم لا يجب أن يتحدثوا دائمًا لغة لا يستطيع غيرهم فهمها"(٢٥).

وتضيف موضحة: "إن من تسنَّى لهم الالتحاق بالجامعة يجب أن يتحدثوا بلغتنا؛ لأننا لم نلتحق بالجامعة، ولا نفهم الكثير عن الأرقام، لكننا نستطيع فهم واقعنا الوطني؛ لذلك أقول: إنهم إذا كانوا فعلًا يريدون سعادة الناس، يجب أن يتعلم الذين يتابعون

---

٢٥ – المرجع السابق.

دراستهم كيفية التحدث بلغتنا بكل المعرفة التي يحملونها، لكي نتمكن أيضًا من فهم كل ما تعلموه"[26].

وتربط "دوميتيلا" بنظرة ثاقبة، بين مدى وعي الطبقة العاملة من جهة ومدى قوة الحركة الطلابية من جهة ثانية مما يحتم على الجامعيين الذين يحملون الهم الإنساني ألا يحجموا النضالات الطلابية إلى نضالات جوفاء أو مرحلية كما ترى الكاتبة، تقول بهذا الصدد: "لقد تغير الطلاب كثيرًا في السنوات القليلة الماضية، والفضل في ذلك يعود لوعي الطبقة العاملة البوليفية، أرى الحركة الطلابية قوية جدًّا في "بوليفيا" ليس في الجامعات فقط، بل في الكليات والمدارس... والطلاب يؤيدوننا دائمًا في مطالبنا، وهم يتضامنون معنا حين نُضرِب، أو نقوم بتظاهرة، أو حين يسجن رفاقنا"[27]، وتضيف في مكان آخر: "يجب أن نكون مسؤولين عن طبقتنا ومتماسكين.

---

٢٦ - المرجع السابق.

٢٧ - المرجع السابق.

## ب- الواقع الثقافي:

و غير بعيد عن دور الجامعة تتحدث "دوميتيلا"عن التربية، وعن التعليم، وباقتضاب عن الثقافة الهندية، فلا ثقافة إيجابية دون امرأة واعية في عُرف "دوميتيلا"؛لأن الثقافة في رأيها، تبدأ منذ الطفولة، ونظرًا لدور النساء كأمهات في هذه المرحلة لابد من إعدادهن لذلك في رأيها؛ لأن أية ثقافة هادفة ومستقبلية هي رهينة بامرأة متحررة، تعبِّر عن ذلك "دوميتيلا"بقوة "إذا فكرنا في الدور الرئيسي الذي تلعبه السيدات كأمهات عليهن إعداد مواطني المستقبل، عندها إن لم يكنَّ على استعداد فإنهن سيعددن مواطنين عاديين يتلاعب بهم الرأسمالي"(٢٨).

وبذلك فالثقافة تمر عبر التربية منذ بدايات هذه الأخيرة، والتربية المُثلى هي التي تعلم الأطفال رؤية الحقيقة، حقيقة الواقع العمالي، حقيقة الوطن؛ لأن هذه المفاهيم هي عرضة للتعتيم داخل المدارس الرسمية، فدور المؤسسات التعليمية الرسمية التي تكلِّف

---

٢٨ – المرجع السابق.

العمال مصاريف باهظة هو تضبيب الواقع العمالي، وتضبيب مفهوم الوطن، وأفضل ما يُذكر في هذا المجال قول "دوميتيلا": "علمتني المدرسة القراءة والكتابة، وأن أتدبر أمري، لكني لا أستطيع أن أقول إنها ساعدتني بالفعل على فهم الحياة، أعتقد أن التعليم في "بوليفيا"، بالرغم من كل الإصلاحات التي تمت، لا يزال جزءًا من النظام الرأسمالي الذي نعيش فيه، إنهم يعطون دائمًا تعليمًا بعيدًا عن الواقع"(٢٩).

ولا تكتفي المؤسسة التعليمية الرسمية في رأي "دوميتيلا" بطمس الواقع ـ فحسب ـ بل تتعدى ذلك إلى مفهوم الوطن، تقول: "يجعلوننا ـ مثلًا ـ نرى الوطن شيئًا جميلًا؛ في النشيد الوطني، في ألوان العلم، وكل تلك الأمور تفقد معناها حين لا يكون الوطن في حالة جيدة"(٣٠).

---

٢٩ – المرجع السابق.

٣٠ – المرجع السابق.

وتفسر مفهوم الوطن من وجهة نظرها: "الوطن بالنسبة لي: هو في كل زاوية، إنه في المناجم أيضًا، في الفلاحين، في فقر الناس، في عريهم، في سوء تغذيتهم، في آلامهم وفي أفراحهم، هذا هو الوطن، يعلموننا النشيد وكيف نقوم بالاستعراض، ويقولون إننا إذا رفضنا ذلك نكون غير وطنيين، ومع ذلك فهم لا يفسرون لنا ـ مطلقًا ـ فقرنا وبؤسنا، وأوضاع أهلنا، وتضحياتهم الكبيرة وأجورهم المنخفضة"(٣١).

ومثلما تعتز "دوميتيلا" بلغات شعبها الأصلية تعتز بأصلها الهندي "أنا فخورة بالدم الهندي الذي يجري في عروقي"(٣٢)، وهذا رغم معاناتها بسبب ذلك منذ طفولتها؛ إذ تقول ـ مثلًا: "كنا في عيد الميلاد نترك أحذيتنا على النافذة، ونحن نأمل بالحصول على هدية صغيرة، لكننا لم نكن نجد شيئًا أبدًا، وحين نخرج كنا نرى أن كل الفتيات الصغيرات يلعبن بدمى جميلة، كنا

---

٣١ – المرجع السابق.

٣٢ – المرجع السابق.

نرغب في لمسها على الأقل، لكن الفتيات كن يقلن: لا تلعبي باللعب أيتها الطفلة الهندية القذرة"[٣٣].

لقد أوردت الحديث حول مسألة الانتماء للهنود في هذا الفصل؛ لأنها لا تتمثل من خلال الكتاب على نقطة تقاطع الصراع بين طبقتين، بل داخل نفس الطبقة أحيانًا؛ فهي انعكاس لرواسب نظرة عنصرية تنفخ فيها الثقافة السائدة باستمرار إمعانًا في التفرقة، والوسط الهندي في "بوليبيفيا" كان أكثر فقرًا من غيره، وبذلك كان هو الوسط الأكثر ثورة وتمردًا على الأوضاع، مما جعل السلطة تحقد عليه بشكل خاص؛ فخلال مجزرة "أيلول ١٩٦٥م" حين دخل الجيش منتصرًا إلى المناجم كان الجنود يتصلون فيما بينهم بأجهزة اللاسلكي ناعتين في خطاباتهم الهنود بأقذع الصفات ـ مثلا: "نحن الآن في الشمال في الجنوب، نحن الآن نقوم بحملة تطهير لبقايا هؤلاء الهنود الحمر؛ لهؤلاء الجبناء، هؤلاء

---

٣٣ – المرجع السابق.

الفاسدين"[٣٤]، وتُعقِّب "دوميتيلا"على ذلك بقولها متحدية: "نعم كلنا حمرٌ طالما يهمهم ذلك"[٣٥].

أكتفي بهذه الإطلالة المقتضبة على الكتاب على أمل مراجعته بشكل أعمق ؛ لإبراز أهمية الشهادة الشفوية حين تكون الوسائط ذات مصداقية.

إن ما أثارته هذه الوثيقة البوليفية يتطلب وقفة متأنّية أكثر؛ إذ تتضمن إشارات ضوئية متنوعة جديرة بالاهتمام، لكن لم تسمح قراءتي المتسرعة هذه بالإشارة إليها، فكما ذكرت ـ سابقًا ـ هو مؤلف متميز وزاخر، ويستوجب أكثر من قراءة.

---

٣٤ – المرجع السابق.

٣٥ – المرجع السابق.

## ٥- خلاصات من تجربة دوميتيلا:

إن صاحبة هذه الشهادة "دوميتيلا باريوس دو شنغارا"، لم تهدف من سردها لتجربتها، الشهادة فحسب كما ذكرت - آنفًا - كان هدفها أيضًا التوجيه، توجيه أكثر الناس فقرًا كما تقول: "من أجل هؤلاء وافقت على تدوين ما سأرويه... ، ما يهم هو أن يكون هذا العمل ذا فائدة للطبقة العاملة، وليس فقط لأهل الفكر، أو الذين يتخذون مثل هذا الإنتاج اليومي مهنة لهم"[٣٦].

وهي ترفض اعتبار سيرتها شخصية فحسب، وترى أن حياتها مرتبطة بشعبها، وأن مرارة تجربتها كابدها المئات من أمثالها كما، تعتبرها شهادة باسم كل الذين ضحوا حتى الموت - أحيانا - ورغم ذلك ظلوا مجهولين متجاهلين، تقول: "أريد أن أوضح هذا لأنني

---

٣٦ - المرجع السابق.

أعرف أنه سبق لأشخاص أن قدَّموا أكثر مني للشعب، لكنهم ماتوا، أو لم تتسنَ لهم الفرصة لكي يُعرفوا"[37].

وبذلك يمكن تسجيل خلاصات متنوعة من تجربة "دوميتيلا" الجماعية على النحو التالي:

**أولًا- أساليب وأشكال نضالية:**

إن أساليب العمال في المطالبة بحقوقهم المشروعة تمت عبر ممارسات وأشكال نضالية تنفي كل ما ينسب للشغيلة من فوضى ونزوع نحو عرقلة السير العادي للعمل، وقد تراوحت كما عند غيرها ـ من الفئات الواعية بوضعها البائس في بلدان أخرى ـ بين الإضرابات عن الطعام؛ كالذي شنته نساء اللجنة مرارًا، والمسيرات على الأقدام؛ كالمسيرة التي أُجهضت في الطريق؛ حيث ألقي القبض على القادة واقتيدوا إلى السجن "بلا باز"، وكذا بذل مجهودات ذاتية لمسايرة الأحداث، أو ما يمكن اعتباره تثقيفًا ذاتيًّا،

37 – المرجع السابق.

تقول : "منذ وصولي إلى "سيغلو ٢٠" كنت أحاول ـ دائمًا ـ أن أبقى على صلة بكل شيء، أستمع إلى أخبار الإذاعة أشارك في المظاهرات، وأحاول أن أعرف ما هي عليه الأمور نوعًا ما، أنا مدينة بكل ما أنا عليه وما أعرفه للناس وبالشجاعة التي أمدوني بها أيضًا"، و لا تفصل "دوميتيلا"الاستفادة من التجارب النضالية الداخليةعن تجارب بقية شعوب العالم، وتؤكد بشدة على ضرورة الاستفادة من الأخطاء حتى لا تُجتر نفس التجارب.

الكتاب إذن زاخر بالتجارب في هذا المجال ويمكننا أن نتوقف عند محطات هامة كالتالية:

## ١ ـ القادة النقابيون:

، لقد حظيت تجربة القادة النقابيين عند المؤلفة باهتمام خاص فهي تربط بين نوعية القادة واستمرارية التنظيم؛ فالقائد الجيد شرط ضروري لاستمرارية التنظيم، والقائد الجيد ليس سوى الذي اختارته الطبقة العاملة بنفسها، وهو الذي يصغي لتوجيهات ومقترحات القاعدة.

تقول دوميتيلا: "لكي يستمر تنظيم الطبقة العاملة، يجب أن نكون حذرين، وأن نختار قادة جيدين، ومن واجب الأفراد العاديين أيضًا أن يوجهوا هؤلاء القادة"[٣٨]، وبذلك تتحول ممارسة القائد إلى مدرسة ساهمت القاعدة في بنائها، والثقة ـ وحدها ـ تضمن الاستفادة والاستمرارية والدعم.

وتعترف "دوميتيلا" بفضل كثير من القادة؛ كالتالي: "تعلمت الكثير من القادة، أنا أدين بجزء من تطوري الشخصي لهم"[٣٩]، لكن "دوميتيلا" لا تنفي أن التجربة وحدها هي المحك الذي نعرف به نوعية القائد، وأن الضمان الرئيسي لتفادي أية أخطاء قد لا تُصلّح هو إعداد القادة إعدادًا جديًّا من جهة، والتحلي باليقظة الثورية من جهة أخرى لمراقبتهم وتوجيههم والعمل على استئصال نوازع الردة لدى بعضهم، تقول بهذا الصدد: "أعتقد أيضًا أنه بالنسبة لمسألة تنظيم أنفسنا يجب أن نهتم بشكل خاص

---

٣٨ – المرجع السابق.

٣٩ – المرجع السابق.

بإعداد القادة، ففي الماضي وبسبب استعدادنا المحدود، والنقص في تيقظنا الثوري، والنقص في تماسكنا، فإن قادة عديدين خانوا القضية وانضموا إلى الحكومة"(٤٠).

وتوضح أسباب ذلك فيما يلي: "كان السبب في ذلك أحيانًا اختيارنا السيئ لهم، كنا حين نلاحظ أن أحدهم ـ مثلًا ـ يتحدث بأسلوب جيد نقول مباشرة: يا له من متحدث جيد! لابد أنه قائد جيد!، وهذا خطأ فادح...."(٤١).

وبذلك كان لابد من تصحيح الأخطاء والاستفادة منها على بساط الواقع وهو ما يفيده قولها: "وبتصحيح أخطاء الماضي في السنوات العشرين الأخيرة تم إعداد عدة قادة أقوياء، وتعلمنا أهمية تضامننا الواسع معهم، ومراقبتهم، وتوجيههم، ودعمهم ونقدهم حين لا تكون ممارستهم كما ينبغي" وليس القائد هو النموذج الوحيد الذي يجب احتذاؤه، بل الشعب البسيط هو

---

٤٠ – المرجع السابق.

٤١ – المرجع السابق.

المدرسة الحية التي على القائد نفسه أن يستفيد منها. تقول: "هناك أشخاص يتمتعون بشجاعة عظيمة، نرى البعض يبرزون من هنا ومن هناك، ويدهشوننا بمعرفتهم الواسعة، إن الشعب معين لا ينضب من الحكمة والقوة ويجب ألا نستخف بالناس مطلقًا"[٤٢].

وتعترف بحساسية مركز القيادة وخصوصيته فهو عرضة للقمع أكثر من غيره، وبذلك فالطليعة ثمنها مكلِّف للغاية، ولن يضمن استمراريتها إلا التلاحم معها، وضمان من يخلفها، فالإجهاز على القيادة النقابية لا يؤتي أكله إلا إذا انعدمت شروط الاستمرارية...

إذن يمكن إيجاز صفات القائد المثالي حسب "دوميتيلا" في استماعه لتوجيهات القاعدة والتقرب من العمال لتنويرهم، وتبنيه الوضوح والعلانية في اتخاذ القرارات، واكتسابه المشروعية قاعديًّا، وإخلاصه للطبقة وللمبدأ وضمان تنشئته لقادة مستقبلين، وبالتالي عدم احتكاره التجربة القيادية لنفسه، وحرمان القادرين على تحمل

---

٤٢ – المرجع السابق.

المسؤولية مستقبلًا من اكتساب مناعة مسبقة ضد كل الضربات المحتملة.

ومن جانب آخر، إن القادة بالطبع ارتكبوا ويرتكبون الأخطاء، إنهم ليسوا معصومين، خصوصًا قادة بعض الأحزاب الذين كثيرًا ما تلاعبوا بالعمال على حد تعبير "دوميتيلا" التي تفسر ذلك بما يلي: "بعض القادة السياسيين لا ينظرون إلى البعيد ويعتقدون أن الطبقة العاملة يجب أن تكون في خدمة مصالحهم وخدمة حزبهم، لكني أعتقد أن على القائد أن يظهر أقصى احترام للناس، وإن كانوا قد انتخبوهم كقادة لهم فيجب أن نكون نحن في خدمتهم، والعكس ليس صحيحًا"[٤٣].

---

٤٣ - المرجع السابق.

### ٢ـ توزيع المهام النضالية حسب الكفاءة:

و في المقابل ـ وكثورية متمرسة ـ تدرك "دوميتيلا" قيمة الانضباط، كما أنها لا تجرد الفرد من فعاليته داخل الجماعة، ولنتركها تعبر بلغتها العفوية قائلة: "من الأساسي أن نعرف أننا جميعًا مهمون في النضال الثوري... نحن آلة ضخمة للغاية وكل واحد منا هو سن دولاب إن فقد سن واحد، لا تستطيع الآلة أن تعمل، إذن يجب أن نعرف كيف نعيّن لكل واحد دوره أو دورها، ونعرف كيف نقيمه أو نقيمها، وبذلك تنتفي في المهام النضالية أية تمايزات، خصوصًا الجنسية منها، وتبقى ضرورة نشر الوعي أو التعريف بالقضية مهمة ملقاة على كاهل الجميع كل يساهم من موقعه بأقصى ما يستطيع.

ويبرز الدور الذي أوكل لـ"دوميتيلا"، وأدّته بقناعة وإرادة؛ وهو مشاركتها في عدة مؤتمرات ، مثلما قام بعض الطلبة الجامعيين وبعض علماء الاقتصاد والمختصين بتنظيم حلقات تدريسية للنساء البوليفيات المؤسسات لبعض التنظيمات الواقعية الهادفة.

### ٣ـ اليقظة الثورية كسلاح ضد إحباطات السلطة:

إضافة إلى اليقظة الثورية الواجبة لتوجيه القادة إن هم أخطأوا، ومساندتهم إن هم أصابوا، تدعو "دوميتيلا" إلى الحذر الدائم من نوايا أرباب العمل، وإلى تكسير كل الحواجز التي يضعونها في وجه العمال: ابتداءً من سياسة تقسيم أوقات العمل التي تحرم العامل من أي شكل من أشكال الراحة كمحاولة لحرمانه ـ بالتالي ـ من تأمل وضعه ونقده، ومرورًا بالوعود الكاذبة التي ـ كثيرًا ما ـ خيبت آمال العمال (والشعب الفقير عامة) ووصولًا إلى المحاولة اليائسة لزرع مشاعر العداوة والحقد بين الشعوب؛ من ذلك موقف الحكومة البوليفية واستغلالها مشكلة الحدود مع "الشيلي" كورقة لكسر أي تضامن مستقبلي بين الشعبين البوليفي والشيلي، تقول "دوميتيلا" : "تلك أسلحة يجيد العدو استخدامها حتى لا نتوحد ونشكل جبهة واحدة فيسيطرون علينا"(٤٤).

---

٤٤ - المرجع السابق.

إذًا لم تتورع السلطة عن التحالف مع نظام مجاور مشابه لها لقمع مطامح شعبيهما، يتضح ذلك من موقف الحكومة البوليفية من "الشيلي" الذي حرمها من منفذ على البحر، فحين كان "سالفادور أليندي" في السلطة كانت تستعرض عضلاتها العسكرية مهددة بأخذ المنفذ بالقوة، لكن حين استولى "بينوشي" على السلطة غيرت الحكومة البوليفية موقفها جذريًّا، وبذلك لم يكن مطلب المنفذ على البحر سوى شعار تلوح به الحكومة البوليفية حين يكون مناسبًا لمصالحها.

ومقابل الدعوة للانفتاح على بقية الشعوب، توصي "دوميتيلا" بالتمسك بالهوية الثقافية، وتدعو إلى الافتخار بها، وإلى الحذر من التأثير الخارجي والداخلي السلبيين، كما تحذر من الوعود الحكومية التي لا تخلف سوى الخيبات؛ مثل خيبة أمل الشعب البوليفي في التأميم، حيث كان التأميم كعدمه تمامًا بالنسبة للعمال الذين تبخرت آمالهم وتعمقت خيبتهم أكثر.

## ـ أهمية التنظيم:

نلاحظ كيف تميزت التجربة العمالية البوليفية من خلال الكتاب بإدراكها أهمية الأداة النقابية القاعدية حتى يتحمل الجميع مسؤولية الحفاظ عليها وتطويرها : "النقابة تمثلنا، وهي صوتنا لذلك يجب أن نحافظ عليها كأهم ما نملك"[٤٥].

تقول كذلك: "نحن مدينون بشكل أساسي للخط النضالي العريق للطبقة العاملة البوليفية التي لن تدع النقابات تقع في أيدي الحكومة، يجب أن تكون النقابة دائمًا منظمة مستقلة، وأن تتبع خط الطبقة العاملة، هذا لا يعني أنها غير سياسية، لكن النقابة لا تستطيع تحت أية ذريعة أن تضع نفسها في خدمة الحكومة.."[٤٦].

إن أهم ما يضمنه التنظيم هو التضامن، والتنظيم وحده لا يكفي إذا لم يعززه شعور عميق واقتناع بضرورة التضامن

---

٤٥ – المرجع السابق.

٤٦ - المرجع السابق.

اللامشروط مع كل من يخوض نضالًا عادلًا ضد القهر والعبودية بأي شكل من الأشكال، وبذلك يتدرج التضامن لدى "دوميتيلا" صُعدًا: من تضامن عمالي مضمون يشجع على قبول التضحيات دون اختلاف تبريرات للتهرب: "... إنك تنسى حين تعود إلى بيتك تعذيب الضرب الذي تحملته في السجن وتنسى التشويه في وجهك حين يقول الأطفال : بابا، ماما. النقابة والرفاق أعطونا القليل من الخبز عندها إن كنت شريفًا محترمًا تنذر نفسك إلى الأبد لشعبك، ولا توجد قوة على الأرض تستطيع أن تفرقك عن الذين أظهروا لك تلك الثقة وذلك التضامن"[٤٧].

إلى تضامن نقابي واسع بحيث تدعم جميع القطاعات القطاع المهدَّد، وهو ما كانت تسهر عليه نقابة عمال "بوليفيا".

إلى تضامن جماهيري أوسع بكثير، مثلًا حين انضم الطلبة الجامعيون والعمال إلى نضالات "لجنة ربات البيوت" فحققت الحكومة مطالب النساء .

---

٤٧ – المرجع السابق.

ولا يفوت "دوميتيلا" أن تتحدث عن التضامن بين الشعوب: "نعرف أن هناك نضالًا طويلًا أمامنا، لكن هذا هو خطنا، ولسنا بمفردنا، كم من الشعوب تناضل أيضًا! كل شعب يحتاج لتضامن الشعوب الأخرى ـ مثلنا ـ؛ لأن معركتنا كبيرة..."[٤٨].

---

٤٨ - المرجع السابق.

## التمسك بالمبادئ الاشتراكية، والاستفادة من تجاربها عبر العالم:

وليس التعريف بالقضية هو الهدف الوحيد من الاتصال بغير البوليفيين حسب "دوميتيلا"، بل لابد من الاستفادة من تجارب بقية الشعوب، وخاصة الشعوب التي استطاعت آنذاك أن تتحرر من نير الإمبريالية ، وبذلك كان من بين هواجس النضالات العمالية إيجاد وسيلة لتحرير الشعوب. تقول "دوميتيلا": "لقد تغلغلت الأفكار الاشتراكية بين صفوف الطبقة العاملة لدرجة أنه في المؤتمر الأخير لنقابة عمال "بوليفيا" عام ١٩٧٠م، صوت العمال لقرار ينص بأن "بوليفيا" ستصبح حرة ـ فقط ـ عندما تصبح بلدًا اشتراكيًّا"(٤٩).

ويبقى الطموح الأكبر هو تضامن واسع وملموس بين الشعوب؛ لأن للشعوب نزوعًا عميقًا إلى ذلك، فمثلًا حين اتهمت حكومة "بوليفا" الشيلي بحرمانها من منفذ على البحر لم تكن

---

٤٩ - المرجع السابق.

تكتفي بانتقاد حكومة "أليندي" بل كان هدفها الأساسي أيضًا زرع الكراهية بين الشعبين: الشيلي والبوليفي.

والصراع من أجل مجتمع أفضل ، في رأي "دوميتيلا"، يبدأ من المنجم، من مقرات العمل من أجل أجور أفضل ووضعية أفضل، وهذا حسم لمسألة النقابي والسياسي والعلاقة بينهما؛ لأن الوجود النقابي ذاته، وضرورة استمراريته وتطويره تفرض اختيارات ثورية محتَّمة على أعضاء النقابة دون أن يعني هذا إلحاق النقابة بحزب من الأحزاب التي لا ترى في العمال سوى مُدَّخر كمي للانتخابات.

## ضرورة التوثيق للتجربة:

لعل أهم درس تعلمته "دوميتيلا"من تجربتها الغنية هو ضرورة تسجيل التجربة؛ يتجلى ذلك من خلال قولها: "لقد أخطأنا في عدم تدوين كل ما حدث، لم يدوَّن سوى القليل، كالأدلة التي كانت عندنا في النقابة، أو في إذاعات المناجم كالتسجيلات مثلًا، لقد أخذها الجيش أو دمرها، كانت ستعود بفائدة كبيرة علينا"[٥٠].

ولا تخفى أهمية التوثيق في تاريخ كل الأمم، يقول الكاتب "سميح شبيب": "لا تاريخ دون وثائق، وبالتالي لا مستقبل، ثقافيًّا أو سياسيًّا دون تاريخ، والوثائق تعتبر ـ بحق ـ الذاكرة الفعلية لأية أمة من الأمم"[٥١].

---

٥٠ - المرجع السابق.

٥١ - المرجع السابق.

ويضيف: "... لذا، فإن الاهتمام بالوثائق وحفظها يعتبر أحد أهم المقاييس لتحديد ومعرفة مدى تطور هذه الأمة أو تلك، لارتباطه جدليًّا بمدى الوعي الوطني من جهة، ودرجة تقدمه من جهة أخرى"[٥٢].

لكن التوثيق يغدو جريمة لا يغفرها التاريخ، إذا كان الهدف منه تضليل الآخرين عن معرفة الحقيقة، أو إضفاء مساحيق خادعة على هذه التجربة أو تلك.

---

٥٢ - المرجع السابق.

## ٦ـ ملاحظات شخصية أولية حول الكتاب:

### أ) الوضعية العمالية:

إن الشهادة الشفوية لا تقل قيمة عن الوثيقة المكتوبة في التأريخ لبعض الأحداث الاجتماعية التي يضرب عليها حجاب من التهميش واللامبالاة.

من خلال كل ما سبق أرى أن المدينة المالية على العموم لوحة عارية يتوضح شرخها من بعيد؛ لذا لا عجب أن نجد أبطال كتابات واقعية أم متخيَّلة يستغرقهم نفس الهم. تمامًا هم متشابهون في معيشهم اليومي ، وفي نمط تفكيرهم ، وفي صرخاتهم الدفينة في صدورهم؛ لذا لم يجد المهتمون بالوضع العمالي غالبًا مهربًا من الشهادة.

لكن إضافة إلى ذلك تكاد لا تخلو الكتابات التي تتناول الوضع العمالي من التعرض لوصف قساوة الجو الطبيعي شتاءً؛ ولعل هذا يرجع للطبيعة الجبلية لمعظم المدن المنجمية، التي وصفتها هذه

الكتابات في الغالب، وهو ما يجعل من فصل الشتاء في هذه المدن شبحًا مخيفًا "فالبرد قارس في الجبال".

ثم تنجر "دوميتيلا" تنجر للحديث عن الأفرشة وأنواعها في البيوت العمالية، وهو حديث قد يبدو تافهًا وثانويًّا بالنسبة للقارئ، لكن الحقيقة أن "دوميتيلا"لم تعره كل ما يستحقه من عناية، فإذا أخذنا كتابًا آخر حول العمال ـ مثلًا ـ كـ "جرمينال" لصاحبه "إميل زولا" سنلاحظ أن فصل الشتاء يهيمن على أغلبية فصول الرواية ويدعوه "زولا" أحيانًا "بالشتاء الأبدي في عمق الأرض...".

وإذا تركنا الكتب جانبًا ونزلنا إلى واقع كواقع مدينة "جرادة" مثلًا ( شمال شرق المغرب) لفهمنا لمَ يحتل فصل الشتاء مكانة بارزة في الكتابات العمالية؛ حيث يتعدى فيها هذا الفصل طبيعته الباردة القاسية ليصبح موسم حصاد، موسم جنائز؛ نظرًا لعسر تحمله من رئتين مهترئتين لا تقويان حتى على التنفس العادي في بقية الفصول.

وتتشابه الأوضاع السكنية بين المدن العمالية إلى حدٍّ بعيد ـ رغم بعض التفاوتات ـ فحين تنتهي مدة استغلال العامل يُرمَى به وأسرته ليتدبر أمر سكنه بنفسه، وبهذا الصدد تقول "دوميتيلا": "إن العامل يستطيع استخدام البيت خلال الوقت الذي يعمل فيه مع الشركة فقط، حين يموت أو يترك عمله لإصابته بمرض المهنة أو مرض المنجم يرمون بالأرملة أو بالزوجة خارج البيت ويمهلونها تسعين يومًا لتذهب إلى مكان آخر"(٥٣).

بل يزداد الأمر سوءًا في "سيغلو٢٠" حين يتعلق الأمر بالمراحيض العامة (المشتركة) والطوابير اليومية على جرعة ماء.

هذا عن المدينة كواجهة خارجية، أما المشاكل العليقة بدروبها ومعرجاتها، فهي تكاد تكون متشابهة بين المدن العمالية مع شيء من التفاوت عليق بالزمكان الذي توجد فيه؛ لأن البيئة وظروف العمل تؤثر على نفسية وسلوكيات ووعي أفرادها، فإذا كانت كل الكتابات تسجل ـ مثلًا ـ صلابة عمال المناجم، فليس ذلك راجعًا

---

٥٣ – المرجع السابق.

إلا لكونهم الأكثر بؤسًا وشقاءً وحرمانًا، وكذا لوضعهم الموحَّد، ولمصيرهم الموحد، فمثلًا شهر عمل ـ فقط ـ بمناجم "جرادة" حيث تنعدم وسائل الوقاية الضرورية، كافيان لحمل بدايات الموت: داء السيليكوز، ناهيك عن الحوادث المميتة شبه اليومية بسبب إهمال وسائل العمل وعدم تجديدها، وبسبب سوء التسيير، وعجرفة بعض الأُطر الذين لا يمتُّون بصلة لا للتفكير العلمي ولا للثقافة ولا للضمير الإنساني.

لكن الملاحظ أن "دوميتيلا"لم تتوقف بما فيه الكفاية عند النماذج الأكثر بؤسًا، كما أنها تجاوزت ظواهر هامة لا تخلو منها مدينة عمالية؛ فهي قد مرت مرَّ الكرام على ظاهرة استغلال الأطفال داخل الأسرة العمالية، وهي ظاهرة مشتركة في المدن العمالية ـ مع شيء من التفاوت ـ يفرضها العجز التام أمام المتطلبات اليومية المتزايدة.

وإذا كان الأطفال في مدينة عمالية بوليقية يُستغلون في بيع مواد غذائية أو جلب الماء أو غيره، فالأطفال في مدينة كـ"جرادة"

يضطرون للتنقيب الخارجي عن الفحم لبيعه، مما يتسبب لهم في حوادث خطيرة مرارًا وتكرارًا.

لم تركز "دوميتيلا"على هذه الظاهرة بما فيه الكفاية، ويكفي للدلالة على أهميتها أن أشير إلى أن "بوليفيا" هي البلد الذي بلغ به الإفلاس مؤخرًا إلى إغلاق المدارس واضطرار الأطفال للبحث عن عمل يدوي بالمزارع أو غيرها.

من جهة أخرى ضربت "دوميتيلا"صفحًا عن ظاهرة أخرى لا تقل أهمية وهي ظاهرة البغاء، والمعلوم أن الأدبيات الماركسية والكتابات التي تقترب منها تكاد لا تخلو من موضوع حسَّاس كهذا، وغريب فعلًا أن تمر "دوميتيلا"مر الكرام على وضعية مزرية كهذه.

إن ظاهرة البغاء ظاهرة ملازمة للمجتمعات الاستغلالية بصفة عامة، لكن أسبابها وملابساتها تختلف بشكل متميز في مدينة عمالية، فلمَ لا ـ إذن ـ في "سيغلو ٢٠"؟.

غير أن "دوميتيلا"تمر عليها بلا مبالاة مصطنعة دون شك، لتقول في الصفحة السادسة وستين(٦٦) من الكتاب، وهي تحاج الجماعة الدينية "شهود يهوه": "لنفترض ـ مثلًا ـ أن هناك أرملة، لنقل إن أحد الأطفال مرض، واحتاجت المال وفي يأسها قبلت حتى البغاء لتنقذ حياة طفلها..."، إنها تكتفي ـ إذن ـ بوضع ظاهرة واقعية موضع الاحتمال، وتحاول المرور عليها بتستر، لمَ إذن؟ أليس هذا ملمحًا من ملامح الاستلاب الذكوري المهيمن على بعض خطابات "دوميتيلا"؟.

إن الخطابات الذكورية عمومًا تلغي العديد من الظواهر التي تشد وضع المرأة إلى القعر بدعوى أنها ظواهر عَرَضية تزول بزوال المجتمع الاستغلالي... أحيانًا من يتنبأون بزوالها يكرسونها هم أنفسهم بشكل أو بآخر، لدرجة توحي بأن بعضهم يعتبرها امتيازًا مهددًا؟ إن البغاء ممارسة ثنائية، وبالتالي هو صفة تلحق الرجل كالمرأة على قدم المساواة مهما حلَّله منها الملفوظ اليومي الذي ليس بدوره سوى إفراز لقرون من القهر الذكوري.

من جانب آخر يمكن الإشارة أيضًا إلى أن "دوميتيلا"مرت على موضوع الهوية الثقافية الهندية بنوع من التسرع، رغم أن بعض إشاراتها ، تؤكد أنها تكتوي بنارها بشكل عميق ، يعود بها أحيانًا إلى فترة الطفولة .

**ب- لجنة ربات البيوت. أيٌّ نوع من التنظيم؟:**

إن الالتحام بالطبقة لا ينبغي أن يُنسي المرأة خصوصية وضعها المزري كامرأة وإلا تحولت إلى مجرد أداة من نوع آخر، فكثيرًا ما رأى "المناضل" في جموع النساء مجرد مدَّخر كمي، وبذلك لا تعدو أن تكون سوى أداة في يده ريثما يحقق انتصاراته الموهومة، ما دامت تستثني نصفًا بأكمله من أفراد المجتمع بكل كمه وكيفه الضروريين لتحقيق أي تقدم.

إن أخطر وصاية على المرأة كانت – ولا زالت– هي وصاية ما يمكن تسميته بالنضال الأبتر، الذي يجسِّد مسلك وعي سياسي (هل هو وعي سياسي فعلًا؟) مسكون بالانتهازية الذكورية تجاه المرأة بالميزوجينية ( كره المرأة واحتقارها) اللامبررة في الكثير من

الأحيان، وعي سياسي مسكون بضده، مسكون بالوهم، منبئ بالهزيمة حتمًا.

فهل خرجت لجنة "ربات البيوت" عن هذه السُّنة ؟ يبدو أن لجنة "ربات البيوت" كانت مجرد رافد كمي (نوعي أحيانًا) للنضالات العمالية دون أن تفرض خصوصياتها كتنظيم للمرأة ـ القربان أو تحرص على تحقيق مكتسبات نسائية.

نعم النضال من أجل الطبقة (الخبز/ الكرامة) هو واجب على المرأة مثلما هو واجب على الرجل، لكن خرافة الصراع الثانوي العارض تعرَّت، وكشفت إلى أي حد أثبت أكثر الذكور عجزهم – على مدى قرون– عن التقدم على مستوى العلاقات الاجتماعية بتهميشهم المتعمد للقضايا النسائية، وإلى أي حد هم قادرون على إيجاد التبريرات المناسبة في الأوقات المناسبة.

تقول "دوميتيلا"عن موقف الكثير من العمال من تأسيس لجنة "ربات البيوت": "لكن قهقهات الرجال كانت عالية في ذلك الوقت، كانوا يقولون: لقد نظمت النساء لجنة، لن تستمر ثمانًا

وأربعين ساعة" وتجيبهم: "لقد نمت المنظمة وهي الآن مهمة جدًا ليس فقط من أجل النساء، بل من أجل الطبقة العاملة كلها".

شيء مهم إن زاوجت اللجنة بين مطالب المرأة، والعمال في الواقع، أما من خلال الكتاب فتضمر شخصية المرأة ضمورًا من خلال جمعية دُعيت نسائية.

ويستغرب المرء الاستلاب الذكوري المهيمن على خطابات "دوميتيلا" مثلًا حين تقول: "موقعنا يختلف عن موقع الحركة النسائية التي تطالب ـ فقط ـ بالمساواة بين الجنسين.

نحن نعتقد أن تحررنا هو في المقام الأول في تحرير بلادنا إلى الأبد من نير الإمبريالية، ونريد أن يكون في السلطة عامل مثلنا وتكون القوانين والتعليم وكل شيء تحت إشرافه، عندها ـ نعم ـ ستتوفر لنا ظروف أفضل لنصل إلى التحرر الكامل بما في ذلك تحررنا كنساء"[٥٤]؛ لأن هذه النغمة الذكورية التي لطالما هيمنت

---

٥٤ - المرجع السابق.

على الخطابات التي تستلهم الماركسية – اللينينية كانت من موقع أن الرجل المناضل الواعي سيكون في مستوى تحمُّل مسؤولياته ممارسة بخصوص كل ما "أجَّل من حلول"، ومن موقع أن هذا التأجيل لا يخصه هو (بأي مبرر سيخصه هذا التأجيل) وإنما تفرضه الذهنية الراكدة السائدة التي يلزمها بعض الوقت لتتزحزح، بل هنا يتوجب عل المناضل إعطاء النموذج وإثبات تميزه وارتقاء تعامله بفضل ما اعتنقه من أفكار إنسانية تفهم الواقع وتحلله وتكد في البحث له عن حلول.

أما أن يندس "المناضل" بين مزدوجتين وسط الزحام ليمارس ما يمارسه أكثر الذكور تخلفًا ورداءة على وجه البسيطة، فالأمر لم يعد مسألة تأجيل خدمة للأساسي، وإنما حفاظًا على امتيازات ذكورية مهددة، يهددها معتقده نفسه.

إن الحركات النسائية لا تطالب دومًا، وليست كلها بالمساواة بين الجنسين، فهذا شأن الحركات النسائية التي تهيمن عليها

أحزاب ترقيعية تختزل دور جمعياتها النسائية في جمعيات تستلهم الحزب (الرجل) فتكون منه وإليه.

وتصف "دوميتيلا" اللجنة بما يلي: "إن لجنة "ربات البيوت" منظمة كالنقابة، وتعمل تقريبًا بالطريقة نفسها، ونشارك أيضًا في اتحاد عمال المناجم، ولنا مركزنا في نقابة عمال "بوليفيا" ونعمل على أن تصبح أصواتنا مسموعة ونحرص على تنفيذ المهام التي تتبناها الطبقة العاملة".

وتقول كذلك: لقد أظهرت الكثيرات من أخواتي من خلال ما قمن به أنهن يستطعن أخذ أدوار مهمة جنبًا إلى جنب مع العامل، وقد أثبتت لجنتنا أنها تستطيع أن تكون حليفًا قويًّا من أجل مصالح الطبقة العاملة".

إنها مواقف نبيلة حقًّا، لكن لا يمكن بصددها أن نتحدث عن الحليف؛ إذ لابد للحليف من هوية، ولجنة "ربات البيوت" إذن لم تكن جمعية نسائية، بل هي جمعية لمساندة النضالات العمالية مكونة من النساء، لم تكن سوى فرع لتنظيم عمالي لم يكن هدفها الدفاع

عن حقوق المرأة، بل الدفاع عن واجب المرأة في مساندة العمال، ذلك أنها ـ وهذا طبيعي ـ لم ترقَ، ولن ترقى إلى مستوى التنظيم العمالي الحقيقي، وكما أننا لن نتحدث عن جمعية نسائية هنا، وإذا كانت فكرة إنشاء جمعية من هذا النوع فكرة جد إيجابية، إلا أني رغم ذلك لم أستسغ أن أضرب صفحًا عن الاستلاب الذكوري الذي تعاني منه، فمادامت مكونة من نساء كان عليها طرح القضايا الخاصة بالمرأة وتخصيص لجنة للعامل، لكن العكس هو الذي تحقق هنا، وبذلك كان لابد من لجنة امرأة داخل لجنة مكونة من نساء، وأعتقد أن حتى هذا لم يتحقق، وتسمية اللجنة في حد ذاتها تعني الكثير: "ربات البيوت" بارتباط مع العمال "أرباب البيوت" دون تحقق التكافؤ على مستوى الربوبية، وهو ما سبق أن اشتكت منه "دوميتيلا"نفسها.

لجنة "ربات البيوت"ـ للأسف ـ لم تخطُ خطوة واحدة – من خلال الكتاب – بعيدًا عن النضالات العمالية، ولم تطالب بحقوق النساء؛ لتكون لجنة ربات بيوت حقيقية.

لقد كانت النساء في "سيغلو ٢٠" يستشهدن وهن حاملات، ويلدن في السجون دون أن يطالبن ـ ولو ـ بحقهن في تحديد النسل ("دوميتيلا" نفسها أنجبت سبعة أطفال وهي تعيش في منتهى الفاقة والإملاق، ناهيك عن اللاتي توفين) وليس هذا سوى أحد وجوه الذوبان في الذهنية السائدة التي لا ترضى من المرأة إلا بما يفوق التصور من إنكار للذات.

إن معاناة المرأة هي معاناة يومية، وهي معاناة مادية معنوية جسدية ونفسية، نعم يبقى تحرير النساء مرتبطًا أساسًا بالتحرير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي للشعب ككل ، وإن مشاركة النساء في هذه العملية تجب رؤيتها في هذا السياق، لكن هذا لا يعني الذوبان الكلي في شخص رجل لا يبدي أي استعداد فعلي للتحول على هذا المستوى، وتبقى الاستثناءات عامل تذكير بالقاعدة ـ ليس إلا .

لكن بخصوص "بوليفيا" يجدر الاعتراف بأن بعض المناضلين ـ رغم كل ما سبق ذكره ـ كان لهم اهتمام مبكر وجاد بالتنظيمات

النسائية، فإذا كان وضع المرأة يدفع بها حتمًا للتفكير في التنظيم، فالشروط الذكورية؛ أي العامل المحيط، كان أقل حدة هنا (في بوليفيا) خصوصًا لدى الفئة المثقفة، ولعل هذا راجع لتحرر الرواسب الذكورية هناك من عدة موروثات تعاني منها مجتمعات كثيرة، كالمجتمعات العربية مثلًا، بدليل أن بعض المناضلين البوليفيين كانوا يساعدون النساء على خوض التجربة التأسيسية، وكما ورد في الكتاب الذي نحن بصدد دراسته: "كانوا ينظمون بعض الحلقات التدريسية لبعض الرفيقات اللواتي أسسن "اتحاد الأمهات"، كان هناك بعض شبان من الجامعة؛ علماء الاقتصاد، كان حديثهم مهمًا جدًا..." [٥٥] وتجدر الإشارة إلى أن العديد من النساء الحاضرات كن أميات.

من جانب آخر أسجل أن الخطاب العفوي البسيط لـ"دوميتيلا" قد سلط الضوء على حيز أساسي من العلاقة: امرأة / رجل، وهي العلاقة داخل البيت، فالبدء من البيت هنا المعركة

---

٥٥ – المرجع السابق.

الأولى، تقول: " طالما أننا نعيش تحت ظل النظام الحالي، فإن الأمور ستستمر دائمًا على هذا النحو؛ لذلك أعتقد أن كسب تلك المعركة الأولى في البيت مهم جدًّا بالنسبة لنا نحن الثوريين، وهي مساهمة المرأة والرجل والأطفال في نضال الطبقة العاملة، حتى يتحول البيت إلى معقل لا يتمكن العدو من التغلب عليه؛ لأنه إن كان عدوك داخل بيتك، فهو سيكون سلاحًا آخر يستطيع عدونا المشترك استعماله للوصول إلى نهاية خطيرة"(٥٦).

لكن سرعان ما يعود الذوبان الكلي في الذات الذكورية لدى "دوميتيلا" إلى الواجهة حين تتحدث عن الاستغلال، تقول: "... من الضروري أن تتخلص نهائيًا من تلك الفكرة البورجوازية القائلة بأن المرأة يجب أن تلازم البيت وأن لا تتورط في أمور أخرى في مسائل سياسية ونقابية مثلًا؛ لأنها حتى ولو كانت في البيت فهي على أي حال جزء من نظام الاستغلال كله

---

٥٦ - المرجع السابق.

الذي يعيش فيه رفيقها، عاملًا في المنجم أو في المصنع، أو في أي مكان... ".

بصدد هذه الفقرة أعلاه، أتساءل صراحة كيف يمكن للمرأة أن تكون جزءًا من نظام الاستغلال؟، كان بودي أن أفهم العبارة فهمًا آخر لولا قول "دوميتيلا": "أظن أن هذا كله يثبت أن عامل المنجم يُستغل مرتين، أليس كذلك؟ لأنه بأجر صغير كهذا، على السيدة أن تعمل أكثر بكثير في البيت، وهذا بالفعل عمل غير مدفوع الأجر نقوم به لرب العمل أليس كذلك؟"[٥٧].

فهل العامل هنا مُستغل "فيها" أم أن المرأة هي المستغلَّة في حد ذاتها، هل للمرأة كيان أم أن مشروعية كيانها تمر عبر زوجها؟!.

إن كتاب "دعوني أتكلم" كادت تخترقه قطيعة بين وضع "دوميتيلا" كامرأة مضطهدة في مجتمع ذكوري، ووضعها كزوجة عامل، لقد وقعت أحيانًا فريسة في مخالب خطاب يصنف قضيتها

٥٧ - المرجع السابق.

من درجة ثانية، وهنا سبب ضمور تجربة لجنة "ربات البيوت" على مستوى قضية المرأة.

وبذلك يظل التساؤل التالي مشروعًا: لقد قدَّمت اللجنة الكثير للقضية العمالية، لكن ما التقدم الذي أحرزته على مستوى قضية المرأة؟ وما التحسن الذي طرأ على وضعية المرأة البوليفية ضمن الوسط العمالي البوليفي آنذاك؟ فحتى في محكمة السنة العالمية للمرأة، مثّلت "دوميتيلا" العامل البوليفي لا المرأة، وكان من الطبيعي تمامًا أن تسألها أولئك النساء بالمحكمة عن رأيها حول بعض القضايا النسائية، بغض النظر عن تفاوت الأسئلة المطروحة من حيث الأهمية.

### جـ- القيمة الفنية للكتاب

الحقيقة ، لا أحد يجهل أن الوثيقة الشفوية في نقل الخبر عُرفت منذ أقدم العصور، بل كانت نواة عملية التدوين التاريخي في كل الحضارات، وحيثما واكبتها المصداقية فإنها ـ لا شك ـ حالت دون

وأد أو تجاهل الكثير من الحقائق، وراهنًا هناك اهتمام بما سُمي بالتاريخ الشفوي، لكنه يلقى التصفيق في ميدان دون آخر.

وبصدد موضوعنا يليق بنا التساؤل عن طبيعة كتاب "دعوني أتكلم".

ما طبيعة كتاب "دعوني أتكلم"؟ وإلى أي فن أدبي ينتمي؟ أهو وثيقة تاريخية؟ أم سيرة ذاتية؟ أم هو رواية؟

الحقيقة ان الطريقة التي تصوِّر بها "دوميتيلا" حياتها وحياة العمال هي طريقة لا تؤلف نسقًا متكاملًا، لكننا نستطيع أن نميز داخلها ملامح تاريخية وأخرى فنية تتوزع في الكتاب دون أن تستحوذ عليه هذه أو تلك كلية، وسأحاول فيما يلي جرد هذه الملامح والمميزات:

## ١ـ من حيث المضمون:

### أ‌ـ ملامح تاريخية:

إنها كتابة لا تخلو من تاريخية؛ إذ تفصح عن عناصر تحليل تاريخية عفوية لكن عميقة، وهذا ما نستشفه من مقدمة الكتاب التي ترى أن "هناك شهادات قليلة لرجال ونساء من المناجم، ومن المعامل، ومن الأحياء الفقيرة أو من الريف، لا يحكي المناضل فيها فقط الوضع الذي يعيشه لكنه أيضًا يعي الأسباب والأجهزة التي تخلق هذا الوضع وتحافظ عليه، وينذر نفسه للنضال من أجل تغييره.

بهذا المعنى، فإن شهادة "دوميتيلا" تحوي عناصر تحليل تاريخي بارع وعميق؛ لأنها تفسير للوقائع من وجهة نظر شعبية"[٥٨].

إن "دوميتيلا" تؤرِّخ لقضية، لمصير، من جانب معين، ومن وجهة نظر امرأة من صميم الوسط العمالي البوليفي، يقول الناقد

---

٥٨ - المرجع السابق.

"نبيل سليمان" في مقال مشابه نوعًا ما: "إن العمل الخلاق قد يكون شهادة ذاتية أو جزئية، دون أن يقلل ذلك من عظمته"[٥٩].

لكن زخم الأحداث وكثافتها أدى بـ"دوميتيلا" إلى القفز على أحداث هامة جدًّا، تتطلب تأنيًّا وتؤدة كبيرين.

ب- الواقعية:

نظرًا للضغط اليومي على انشغالات العمال، وحتى على عفويتهم تطغى الواقعية على لغتهم، فـ"دعوني أتكلم" لا يهدف إلى الإمتاع بقدر ما يرتكز على واقعية تصور حياة العمال اليومية محاصرة بتواريخ عديدة (١٩٤٢- ١٩٤٩- ١٩٦٥- ١٩٦٧م).

فإذا كان الحكي بالمفهوم الأدبي، مجرد تصور للتاريخ، أو تصوير له من منطلق تخييل، فالحكي بمفهوم الشهادة هو نقل مسؤول لواقع يومي معيش.

---

٥٩ - المرجع السابق.

إن الميدان في حاجة إلى من ينزل / يصعد إليه، وتشكل أقوال البسطاء خطابًا عفويًا صادقًا على الموثق نقله بكل أمانة؛ لأنه لا يخلو من عناصر التحليل التاريخي الثاقب.

## جـ- الطبيعة التعليمة:

هذا الكتاب هو أداة هادفة، وكما جاء في التقديم إنه "أداة للعمل"، لقد وافقت "دوميتيلا" على الإدلاء بشهادتها كأسلوب "للمساهمة بحبة رمل صغيرة، على أمل أن تخدم تجربتنا بطريقة ما الجيل الجديد"، كما جاء في مقدمة الكتاب، تقول دوميتيلا: "من أجل هؤلاء وافقت على تدوين ما سأرويه... ما يهم هو أن يكون هذا العمل ذا فائدة للطبقة العاملة، وليس فقط لأهل الفكر أو الذين يتخذون مثل هذا الإنتاج مهنة لهم"[٦٠].

إنه كتاب توجيهي إذن وضِع خدمة للطبقة العاملة، ولكل من تجمعهم بها رابطة ما.

---

٦٠ - المرجع السابق.

## د- التوثيق للتجربة:

إن "دعوني أتكلم"، عبارة عن وثيقة شفوية أصلًا، هدفها التوثيق عن سبق وعي وإصرار لتجربة فردية لا تنفصم عن تجربة عمالية جماعية منصهرة في بوتقة المعاناة اليومية، والإيمان القوي بكرامة الفرد التي لا تنسلخ عن كرامة الجماعة.

إنه التوثيق من موقع عضوي حفاظًا على الذاكرة الجماعية وضمنها الذكريات الفردية، وبذلك يدخل هذا الكتاب ضمن الوثائق غير الرسمية الخاصة بأفراد انصهروا مع الجماعة، ونذروا لها وجودهم نفسه.

## ٢- من حيث الشكل:

### أ- الملامح السردية في الكتاب:

يخلِّد الكتاب شخصيات تاريخية وأبطالًا ثوريين وأحداثًا ضخامًا مرتكزًا على ضمير المتكلم المتأرجح بين الأنا الفردية والجماعية، فيحكى بذلك تجربة واقعية مُستلهمًا الواقع لا التخييل، مما يبعد النص عن الفن الروائي، أضف إلى ذلك ترجمة المؤلف من الشفوي إلى المكتوب ترجمة محايدة لا يتدخل فيها الوسيط فنيًّا توخيًا للأمانة، كما أن منهجية الكتاب تبعده أيضًا عن السيرة الذاتية، وإن ظلت هذه الأخيرة هي الأقرب إليه فنيًّا، وهذا ما تؤكده "دوميتيلا" بقولها: "لا أريد فقط أن أروي قصة شخصية، أريد أن أتحدث عن شعبي، أريد أن أكون شاهدة على كل التجربة التي اكتسبناها خلال سنوات عديدة من النضال في "بوليفيا".

ويمكن إضافة أن بُعد هذا المؤلَّف عن الفن الحكائي بمفهومه الصحيح رواية كان أم سيرة، يؤكده كون الأحداث التي تصور بها "دوميتيلا" حياتها وحياة العمال، هي أحاديث لا تؤلِّف فيما بينها

نسقًا، كما يتصدع التسلسل من حين لآخر ويتناوب الهيمنة الجماعي والفردي مع طغيان واضح للجماعي، لكن كل هذا لا يلغي الملامح الفنية التي تطفو من حين لآخر؛ فيصح اعتبار هذا الكتاب شهادة قيمة عن تجربة عمالية زاخرة، هو عبارة عن توثيق لتجربة نضالية متميزة.

## ب-اللغة والأسلوب :

بخصوص اللغة كحمولة فكرية ـ في الحقيقة ـ لا يمكنني محاكمة لغة الكتاب؛ لأنها لغة يشترك فيها الناشر الوسيط، والمترجم ،لكن هذا لا يمنع من إيراد الملامح العامة التالية : فهي كانت لغة اليومي المشترك؛ بمعنى أنها كانت لغة شفوية عفوية بسيطة ، خالية من الحذلقة، تنشد الأمانة في التصوير، دون أن تنفخ في الأحداث، ولم يمنعها هذا أن تكون لغة طموح وتحد بامتياز، فهي حُبلى بالحلم والأمل، والثقة في الطبقة العاملة، وفي الغد المنشود، لكنها أيضًا لغة لا تخلو من شعارية أحيانًا، فرضها ـ ربما ـ الحماس الجماعي آنذاك.

أما عن اللغة كوعاء تعبيري، فقد اتسمت باعتبارها أداة توصيل في هذا المؤلف ، بالدقة في كثير من الأحيان، مثلا حرصت "دوميتيلا"على استعمال تعبير "مخيمات استخراج المعادن" وهو تعبير دقيق، ما دام التواجد العمالي هناك مؤقتًا ومشروطًا، من جهة أخرى هي لغة كيفها النضال اليومي؛ فتسمي التسريح الجماعي

للعمال: "مذابح بيضاء"، ولم يخنها التعبير إلا نادرًا، مثلًا حين تقول: "بالرغم من أن العمال يدعمون الاقتصاد الوطني بعرقهم ودمائهم" والحقيقة أن كدحهم هو أكثر من مجرد دعم خصوصًا في بلد كـ"بوليفيا"؛ حيث يشكل استخراج المعادن وحدها 60 ٪ من مدخوله، وما تبقَّى هو من عائدات النفط وغيره.

ولا تخفى شعبية لغة "دوميتيلا"، وقد وصفتها الناشرة بأنها لغة امرأة من أعماق الشعب، بتعابيرها بمفرداتها المحلية، وأحيانًا تتخللها لغة "الكيوشوا" التي كانت تتكلمها منذ الطفولة، إنها لغة تبدو سطحية أحيانًا، لكن الحقيقة أنها بعفويتها تلك تصبح أبلغ من أي تنظير.

أخيرًا إنها لغة لا تخلو من ملامح جماعية؛ فتعبر عن الاغتراب والغربة بين أحضان الوطن بالتشبيه التالي: "إننا نعيش كالغجر على أرضنا"، وذلك لانعدام الشعور بالاستقرار لدى العمال المُهددين في كل حين.

## جـ - الأسلوب:

إن لغة الكتاب بمواصفاتها السابقة، تتكثف لتعطينا أسلوبًا تراوح بين الأدبية والعلمية، بين الشهادة الشخصية المفصلة والتاريخ المجمل، وبين الاستلاب والواقعية، أسلوبًا خاليًا من التخييل؛ إذ يستلهم الواقع كل الواقع، مع غلبة السردية عليه، كما طبعه الاستطراد والتداعي، والتدخل بين الأحداث للتفسير أو لإعطاء دروس نظرية انطلاقًا من تجربة معيشة، مما يرجِّح قربه من الكتابة التعليمية أكثر.

إنها الثقافة العمالية تعبر عن ذاتها بوسائل تعبيرية بسيطة تَمْتَح بلغة الحياة اليومي ونقلته بعفوية صادقة، يغلب عليها استعمال ضمير الجمع إذ ليس هناك تجربة عمالية فردية، وبذلك ينقل لنا الكتاب تجربة جماعية حافلةإنها "النَّحْنُ" التي صهرها الواقع المشترك والمصير المشترك، مع تحفظي الشديد حول ضمور ملامح "دوميتيلا" كامرأة.

## خاتمة

في النهاية، أتمنى ألا تكون هذه القراءة المتسرعة مجحفة في حق أحد، وكما ذكرت في بداية هذا العرض؛ إن كتاب "دعوني أتكلم" يستلزم أكثر من قراءة، وأكثر من اهتمام، كما لا يفوتني أن أنوه بالبادرة الهامة والدور الفعال الذي قامت به "ميما فيزر" التي يعود إليها الفضل في الحفاظ على هذه الشهادة وتداولها في مختلف الأقطار، لقد حاولت التزام الدقة والأمانة ما أمكنني ذلك؛ وهو ما يفسر رجوعي كل حين إلى مضمون الكتاب ، كما أني لم التزم بدراسة ملمح معين من ملامحه، بقدر ما حاولت تسليط الضوء على أكثر ما فيه من مميزات، باعتباره كتابًا له أهميته الخاصة، ويجدر اعتباره معلمًا من معالم الثقافة العمالية بأمريكا اللاتينية

زانة العزاوي

# فهرس الكتاب

*****